الفصل الأول

الشعر العراقى فى العهد العثمانى

١ – المجتمع العراق ومشكلاته
٢ – الاتجاه الإسلامى
٣ – الدستور العثمانى
٤ – حروب الدولة العثمانية

١

المجتمع العراقى ومشكلاته

قبل أن ندرس أثر المجتمع والسياسة فى الشعر العربى فى العراق فى هذه الفترة (١٩٠٠ - ١٩١٩) أرى أن نرسم صورة لهذا المجتمع والمشكلات التى كانت تؤثر فيه .

فقد كان الوالى هو الحاكم المطلق الذى يدير سياسة الولاية . ولو أنها كانت مصبوغة بالصبغة الإسلامية . بيد أن للوالى الرأى الأول فى أمور الولاية . وكانت سيطرته تشمل الرياسة العامة على الجماعات مثل رياسة البلدان والمدن والأمراء والجيش والقبائل وما شابه ذلك . أما السياسة الخارجية فقد كانت جزءاً من سياسة الدولة العثمانية العامة التى تدار من قبل الآستانة مباشرة [١] .

هذى الثمانى عشرة سنة من حكم الأتراك فى العراق لم تكن إلا استمراراً لحالة العراق فى القرن التاسع عشر وتكاد تكون جزءاً لا يمكن بتره عنه ، لولا بعض إصلاحات « ناظم باشا » وأثر اليقظة الفكرية المحدودة التى تسربت من أوربا ولولا أثر الدستور العثمانى .

كان العراق بلداً متأخراً هيمن عليه الجهل وفقد الأمن والنظام مخرب الجوانب والجنبات وخير وصف لحالة العراق هو وصف جريدة « صدى بابل » فقد وصفته بأنه بلد حاق الخراب به ، والظلم والخوف والاضطراب وذكرت الفوضى التى حلت به وكيف كانت ضواحى بغداد تسلب وتنهب وتسرق . وما حاق بالحياة العامة من تأخر [٢] .

وقد لخصت هذه الجريدة حاجات العراق فردتها إلى أمور رأتها أهم ركائز الإصلاح ، أحدها الأمان وثانيها العدل وثالثها العلم [٣] ولا أدرى ما أبقته الجريدة . فهذا مختصر وافٍ لحاجات البلد المتأخر . ويجب أن أقول إن هذا التأخر الذى ساد العراق لم يكن غير جزء من تفسخ عام شمل جميع الإمبراطورية العثمانية . فقد كانت الولايات – ومنها بغداد –

---

(١) يلاحظ (الشعر العراق فى القرن التاسع عشر) للمؤلف .

(٢) صدى بابل العدد ٤٠ السنة الأولى عام ١٣٢٨ هـ .

(٣) صدى بابل العدد ٤٠ / ١

تباع وتشترى كأية بضاعة أخرى[٤] وقد كان هناك سماسرة يتصلون بالراغبين بمثل هذه الصفقات[٥] فلا نستغرب أن انحصر هم الوالى فى جمع المال الكافى للوصول إلى الثراء العاجل فهو مسئول عن دفع هدايا مستمرة لأسياده فى الآستانة وعليه أن يكون له أصدقاء يحافظون عليه وعلى مركزه كيلا يعزل[٦] فهو يبيح لنفسه الاستيلاء على الأموال واستيفاء الضرائب[٧] فيتخذه الموظفون قدوة إذ يستوفون الضرائب دون أن يسجلوها فى السجلات وتبقى ديوناً على أبناء الشعب[٨] .

لذلك فقد انتشرت الرشوة بين الموظفين وتدنى بعضهم إلى درجات مضحكة فأخذت تندد بهم جريدة أبابيل فى عددها الثامن والأربعين بنشر أبيات هزلية تسخر من هؤلاء المرتشين وتطالب بالإصلاح العام معتمدة على إعلان الدستور الذى من أهم مواده الإصلاح ومحاربة الارتشاء المنتشر فى أنحاء الدولة والأبيات هى :

إذا ارتشى اليوم (مأمور ببرطيل) إليه أرسلت طيراً من أبابيل
ترمى على رأسه شر الحجارة من نوع الفضيحة لا من نوع سجيل
فتترك الوجه منه حين تخجله يحوى بثوراً كأمثال الثآليل[٩]

والرشوة سبب من أسباب ضعف الدولة ، فالموظف المرتشى يكون ضعيفاً خائفاً لا يقدر على تطبيق النظام مما ساعد على انتشار الفوضى حتى إن الناس لم يكونوا بقادرين على ترك بيوتهم فى المدن دون أن يحملوا معهم ما يقيهم من أذى اللصوص وسطوة الناهبين والسالبين[١٠] بل تجرأ اللصوص على السلب والسرقة علانية ولم يكن يمضى يوم دون سرقة أو جرح أو قتل

---

(٤) لو نكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ص ٢٧٨ و ٢٧٩.

(٥) غرائب الاغتراب ص ١٨٨ .

(٦) غاية المرام حوادث ١٨٠٠ وغرائب الأثر ص ٥١ .

(٧) لو نكريك ٢٧٨ و ٢٨٩ . يقول ولى الدين يكن وهو كاتب يتعصب للأتراك ويدافع عنهم عن سرقة أموال الشعب ما يلى :

« فتجبى أموال الرعية بلا حساب فيضيع بعضها فى جيب الوالى وبعضها فى جيب من هو فوقه فلا يبقى لبيت مال الدولة إلا ما يتصدق به عليه السارق والناهب . فضالة ينفق جانب منها على طَرَب الملوك ولذاتهم وجانب على المقربين من الغرانقة ويبقى الموظف الصغير صيفر اليدين أو تدرك أمره رحمة فيمد إليه بما يسد به رمقه (المعلوم والمجهول ص ٤٤)

(٨) صدى بابل ٤٥ / ١ .

(٩) جريدة الرقيب العدد ٩٠ / ١ يقصد بـ (مأمور) الموظف فى الدولة والبرطيل كلمة تركية معناها الرشوة .

(١٠) لو نكريك ص ٢٥٢.

أو سلب[١١] وقد وجدت عدة رسائل مفتوحة موجهة إلى الوالى تشكو ما حل بالولاية من إراقة الدماء وانتهاك الأعراض واغتصاب الحقوق وما عمها من فوضى وخراب ودمار[١٢] وما كانت شكاوى الأهلين بمجدية لأن الوالى ومن بيدهم الأمر هم أصحاب المنافع المباشرة وهم أساس هذه الفوضى والرابحون من جرائها[١٣] وكثيراً ما ثاروا على الدولة وقطعوا علاقتهم بها وجرّوا على البلاد الدمار بحروبهم[١٤] بل إن بعض هؤلاء الولاة كانوا يحرضون الأشرار على تعكير صفو الأمن للفوز بالغنائم ومصادرة ما بأيدى اللصوص[١٥] لذلك انكمش الناس فى قراهم تاركين العناية بالزراعة والاهتمام بالتجارة ، فظهر نقصان الغلال فى بلد هو من أخصب بلاد العالم وأغناها فعمه الغلاء والقحط وتردت حياته الاقتصادية[١٦] .

استمرت جميع مشكلات العراق التى كان يعانى منها فى القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين ، ومن هذه المشكلات الأساسية قضية سكان العراق فقد كان أغلبهم من العشائر الذين لهم نظامهم الخاص بهم وكثيراً ما كانت هذه العشائر تتمتع باستقلال ضمن دائرة العشيرة إذ لم تتمكن الحكومة من السيطرة عليها سيطرة فعلية ؛ وكثيراً ما تثور العشائر على الحكومة فتنشر الذعر والرعب فى النفوس[١٧] مغتنمة ضعف الحكومة فى فرض إتاوات وضرائب على بعض المدن إضافة إلى بعض المغانم التى تفوز بها عندما تهاجمها دون وازع من نظام يردعها[١٨] . وقد حاولت الحكومة العثمانية السيطرة عليها ولكنها لم تفلح لتحول رجالها من عصاة إلى مواطنين صالحين لأنها لم تكن تمهد لهم الوسائل اللازمة ودون أن تبذل أى جهد لتضمن طاعتهم واحترامهم لها[١٩] فلا عجب إن كانوا مصدر قلق عام للحكومة وللبلاد يضاف إلى ذلك أنهم كانوا مسلحين بأسلحة هى أجود وأحسن من أسلحة الجيش الذى كان يذهب لقمع حركاتهم[٢٠]

---

(١١) الرقيب العدد ١١٥ / ١ وفى غمرة النضال ص ٥١ .

(١٢) الرقيب العدد ١١٤ / ١ .

(١٣) غرائب الأثر ٩٤ وغرائب الاغتراب ص ١٩٩ وتذكرة الشعراء ٣٥ .

(١٤) كما حدث لسليمان باشا القتيل عام ١٨١٠ ولداود باشا ١٨٣٠ .

(١٥) غرائب الأثر ص ٦٧ ولونكريك ص ٣٢٣ .

(١٦) المصدران السابقان.

(١٧) صدى بابل العدد ٩٧ السنة الثانية سنة ١٩١١ .

(١٨) جريدة الزوراء العدد ١٧٣ السنة الثالثة سنة ١٢٨٧ .

(١٩) لونكريك الصفحات ٧١ - ١٧٥ و ٢٨٨ - ٢٩٢ .

(٢٠) صدى بابل ٩٧ / ٢ / ١٩١١ .

ولقد كانت المرأة بعيدة عن المجتمع العراقى فقد احتجزت فى البيوت إذ لم يكن يسمح لها بالاختلاط مع الرجال ، وقد كان الوالد يريد أن يتخلص من ابنته مفضلا عليها الولد مهما كانت درجة فضلها وخلقها . فقد كانت ممنوعة من تعلم القراءة والكتابة كيلا توصلها إلى أغراض فاسدة (٢١) وقد كان لاضطراب المجتمع وقلق مثله العليا أثر فى حياة الرجل الذى تفككت مثله العليا ولم يعد يردعه الوازع الدينى أو الخلقى عن ارتكاب الجرائم . فالقبائل كانت تشن الغارات على المدن والإيرانيون يهددونها ، وموظفو الحكومة العثمانية نفسها كانوا يَسْبون النساء ويأخذون السبايا إلى الآستانة (٢٢) لذلك حرص القوم على إخفاء بناتهم خوفاً من العار والسبى .

أما الحالة الصحية فقد كانت متردية نتيجة إهمال الدولة لشئون البلد ، فلم يكن فى بغداد طبيب واحد يشرف على المرضى ، فغدا العراق مرتعاً خصباً للطاعون الذى كان يفتك بالناس دون رحمة ودون أن يقف أمامه شىء (٢٣) حتى غدت الجثث طعاماً سائغاً تعودت عليه الكلاب(٢٤) .

وإذا تلمسنا حالة التعليم فى هذه الفترة فلا نجد للتعليم ظلاً إلا فى المساجد فى المدن الكبرى وبحدود ضيقة (٢٥) ولولا عناية رجال الدين فى مساجد بغداد والبصرة والموصل والنجف الأشرف لقضى على اللغة العربية . ولعل أزهى عصر من عصور التعليم هو عصر « مدحت باشا » غير أن بارقة الأمل التى لمعت فى عصره اندثرت بعد ذهابه من بغداد وبقيت الحال مهملة حتى إن الحكومة لم ترصد عام ١٩١٤ للتعليم مبلغاً من المال مع أنها أرصدت مبالغ للجندرمة وللأمن العام مُهمِلة شئون التعليم وكأنه شىء غير ضرورى أو يمكن الاستغناء عنه . ولم تجد المطالبة بالإصلاح وبضرورة نشر التعليم فتيلا . ومن الطريف أن

---

(٢١) تراجع الإصابة فى منع النساء من الكتابة (مخطوطة لنعمان الألوسى) ، وديوان التفتاف ، ومجموعة أمثال الموصل ؛ ليعرف القارئ مدى خوف الآباء وأولى الأمر من عار البنات .

(٢٢) أخذ « عاكف باشا » بعض النساء العربيات من الحلة أسيرات إلى الأناضول ، راجع مقالا بقلم يوسف رجيب عن بدر الرميض فى مجلة عالَمُ الغد العدد ٩ / ١ / ١٩٤٥ و(الحقائق الناصعة) ٤٣ .

(٢٣) لونكريك ص ٣١٦ .

(٢٤) غاية المرام ص ٢٢٧ وحديقة الورود ص ١٣ ونيل المرام ص ٧٩ .

(٢٥) نشرت جريدة صدى بابل الميزانية فى عددها ٢٣٨ – ٢ – ١٩١٤ وقد كان مصدر إيراد ميزانية الخزانة فى الولاية يتألف من (معارف وبركوسى) أى ضريبة المعارف و (شوصه بدلى) ضريبة الطرق وضرائب أخرى . . ولكن الولاية لم تكن تستفيد شيئاً . وهناك ميزانية أخرى توضع فى الآستانة مع الميزانية العامة . أما ميزانية الولاية فليست للآستانة دخل فيها .

الحكومة كانت تدفع للبواب ٥٠٠ قرش وتدفع للمعلم ٢٠٠ قرش[٢٦] .

أما اللغة العربية فقد بقيت ممنوعة الاستعمال فى الدوائر الرسمية حتى بعد ظهور الدستور العثمانى وكانت ترفض العرائض التى تكتب بها ، بيد أن جريدة الرقيب لم يرضها الحال فقارنت بين حالة العراق وحالة سوريا التى تجيز استعمال اللغة العربية فى الدوائر والمراجعات الرسمية فأمر الوالى باستعمال العربية[٢٧] ، وقد يكون للوالى عذر فى أن يكتب له باللغة التركية ليفهمها مباشرة دون أن تكون هذه الرغبة مدعاة لاستعمالها فى جميع الدوائر وفى المحاكم . لذلك فقد كان أبناء الشعب يفضلون تعلم التركية لأنها السبيل الوحيد للتوظف والعمل فى مصالح الحكومة[٢٨] ، فلا نعجب إذا وجدنا أن نسبة التعليم لم ترتفع عن ٠,٥ ٪ فى جميع أنحاء العراق[٢٩] .

هذه نظرة عاجلة إلى المجتمع العراقى ومشكلاته وجدتُ من المناسب تقديمها لهذه الفترة ليكون القارئ قد تعرف عليها قبل البدء فى دراسة هذه الفترة الأدبية ، ومنها رأى مقدار التردى الذى حاق بالعراق فى جميع نواحيه الاجتماعية ، والثقافية ، والصحية . وقد سكت الشعب طويلا خوفاً أو مجاملة للدولة المسلمة حتى ظهرت بوادر الإصلاح وارتفعت صيحاته من كل أطراف العالم ومن ثم بدأت الآراء الجديدة فى العدالة والمساواة والحرية تتسرب تارة بوساطة الجرائد والكتب الواردة من مصر وسوريا وطوراً بما تنقله جرائد بغداد من أخبار العالم وآونة بما ينقله العراقيون المسافرون إلى الآستانة عند عودتهم بعد احتكاكهم بأبناء الإمبراطورية العثمانية . . هنالك بدءوا يحسون بضرورة الإصلاح والمبادرة إلى عمل يفيد الشعب ، وقد كان منهم المطالب الجرىء المستميت ، ومنهم الهادئ المعتدل . . . ومن تلك الصيحات الهادئة ما كانت تنشره جريدة صدى بابل ، أما الجرائد الجريئة فقد كانت الرقيب ، وتنوير الأفكار ومن ذلك قولها فى إحدى مقالاتها : (لقد عم عموم التبعة العثمانية ، بل الأجانب حال العراق وما كان يئن تحته من ثقل الاستبداد الذى كان مخيماً عليه ضاغطاً إياه ، وعلى الخصوص ما كانت تجرى فيه من المصائب الناتجة عن استبداد الولاة وكتمهم أغلب الأمور عن الآستانة . . .) ، وهذه جرأة وصراحة لم يكن يعهدها أهل

---

(٢٦) تنوير الأفكار ١ / ١ / ١٣٢٨ .

(٢٧) الرقيب ١١٤ صدر فى جمادى الأولى والعدد ١٣٥ صدر فى الخامس من رجب سنة ١٣٢٨ .

(٢٨) لونكريك ص ٣١٦ .

(٢٩) المصدر السابق .

العراق فهو تعريض واضح باستبداد الولاة وتزويرهم للأخبار التى ترسل إلى الآستانة العاصمة ، ولم تكتف الجريدة بهذا إنما ذكرت بصورة جلية لا تدعو للشك طريقة تزوير هذه الحقائق والأسلوب الذى تكتب فيه هذه التقارير التى تصدر عن الولاية إلى مركز الحكم فى الآستانة فقالت : (إن القتل والنهب والسلب ، واصل إلى العيوق ، ولكن الإفادات اليومية لا يحرر فيها إلا أن الأمن والراحة العمومية على غاية المرام ...)[٣٠] .

ولابد لنا من أن نذكر هنا بعض المحاولات المشكورة فى سبيل الإصلاح ، فناظم باشا كانت له مشاريع كبيرة فقد انتوى شق ثلاثة شوارع فى بغداد وحاول تسيير الترام بالكهرباء وبناء جسر حديد وجسرين من خشب وأمر بعمل خرائط لثكنات ومستشفيات ، ثم بدأ فعلا ببعض الإصلاحات ، كإصلاح الأسواق وتعديل وتسوية الطرق المؤدية إلى إيران تسهيلاً لمرور عربات النقل ووضع مخافر للمحافظة وتعيين بعض الموظفين الأمناء فى الجمرك وتعجيل أعمال التجار وتعيين مأمورين للبرق والبريد ليلاً ونهاراً غير أن هذه الإصلاحات لم يكتب لها الاستمرار لأنها كانت دائماً تصطدم برغبات الحكومة المركزية التى كثيراً ما يضطر لأجلها الوالى إلى ترك العمل أو الاستقالة [٣١] .ولم تكن غالبية الموظفين تهمها حركات الإصلاح لأن ذلك سيقطع عنها طريق الإثراء غير المشروع ويسد عن جيوبها موارد سهلة مستديمة من أموال الشعب ، بل لا يهمها مطلقاً إلا خراب البلاد وفساد النظام لضمان عمران بيوتهم[٣٢] ، فقد كانت الوظيفة غاية يتوسل بها الموظف إلى جمع أكبر قدر من الأموال ومن كان همه الإثراء على حساب الشعب الذى لا تربطه به رابطة قويمة قوية لن يحاول مطلقاً معالجة الأمور بصورة جدية ، أو أن يعطى أية أهمية لشكوى تأتيه من فلاح بائس أو عامل محروم إضافة إلى أن البحث فى الإصلاح والعمل الجدى المثمر المنتج يكلف الموظف الوقت الطويل والتفكير العميق وجهداً ومشقة لا طاقة له بها وكل ما يريده الذهاب إلى الديوان أو العودة إلى البيت أو للنزهة [٣٣] .

هذا الانحطاط وهذا التأخر هو الذى دفع الشعراء فى أوائل القرن العشرين [٣٤]

---

(٣٠) جريدة الرقيب العدد ٥٢ السنة الثانية ١٣٢٨ .

(٣١) صدى بابل الأعداد ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٨ من السنة الأولى ١٣٢٨ و٩٧ – ٢ – ١٩١١ و ٣٠ / ١٩١٠.

(٣٢) الرقيب العدد ١١٤ / ١ / ١٣٢٨ ولونكريك ص ٢٨٢ و ٣١٩.

(٣٣) تنوير الأفكار ١ – ١ – ١٣٢٨.

(٣٤) فى كتابنا الشعر العراق فى القرن التاسع عشر المطبوع فى بغداد ١٩٥٨ تفصيل لحالة الشعر والحالة الاجتماعية والسياسية والثقافية .

إلى المطالبة بالتحرر والإصلاح متأثرين بالحركات التحررية التى عمت العالم ولم يكونوا فى دعواتهم هذه خلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين راغبين بالانفصال عن الجامعة العثمانية ، وإنما كانوا يريدون إصلاح الأمور العامة تحت ظل الخليفة العثمانى لأنه الرمز الإسلامى العثمانى للوحدة الإسلامية . . ومن ثم أخذت هذه الدعوة طريقاً آخر هو الدعوة إلى الانفصال وتأسيس دول مستقلة منفصلة عن هذه الرابطة .

أما الأسلوب الذى سار عليه الأدب فهو نهج القرن التاسع عشر العناية باللغة عناية تخرجه إلى حد التزويق الممجوج الذى تمله النفس ، إضافة إلى أن المواضيع التى قد طرقها الشعراء كانت مواضيع تافهة . . مبالغ فيها مبالغات تخرج إلى الإسفاف ولا سيما المديح والرثاء .

٢

الاتجاه الإسلامى

بقيت الدولة العثمانية – حتى الحرب العظمى الأولى – تحكم البلاد العربية ، وقد كان السلطان العثمانى ممثلا للشرق والمسلمين ، يقود هذه الشعوب أنّى أراد وأين أراد ، ومتى أراد . لسيطرة النزعة الإسلامية على غيرها من النزعات الأخرى بين الشعوب المسلمة والعربية إذ لم تكن الفكرة القومية قد ظهرت بعد ظهوراً شعبيًّا ولم تكن الفكرة العربية قد تغلغلت فى النفوس بعد . إذ كان أكثر العرب ينظرون إلى الخليفة العثمانى على أنه ممثل لآمالهم الإسلامية ولم يكن العربى المسلم يأنف من الاعتراف بسيطرة السلطان ، ولعل الخوف من سيطرة الأوربى الكافر هو الذى جعل هذه الشعوب قوية الالتفاف حول السلطان العثمانى ، فهى ترى الحاكم المسلم خيراً من حاكم لا يربطها به أية رابطة ، وقد اتخذت الدول الأوربية نفس السلاح ودعت الشعوب غير المسلمة إلى الثورة والتخلص من حكم المسلمين [١] .

فالفكرة الإسلامية كانت نزعة هذا العصر ومن أراد الخروج عليها والدعوة لغيرها فهو خارج على الدين الإسلامى . . مع أن أكثرية المنادين بالجامعة الإسلامية ليسوا من مؤيدى النفوذ العثمانى ، وإنما كانوا يفضلونه على سواه من النفوذ الأجنبى مسوقين بالعاطفة الدينية التى تقول إنما المؤمنون إخوة . . لذلك فهم يرون الخليفة العثمانى الركن القويم الذى تعتمد عليه الوحدة الإسلامية .

والشعراء جزء من الشعب يعكسون رغباته ويمثلون أمانيه فتراهم فى شعرهم قد اتخذوا الخليفة العثمانى رمزاً للوحدة الإسلامية ، فهم امتدحوا سجاياه وأشادوا بأخلاقه وفضائله ورفعوا ذكره ومجدوا سياسته فجعلوه فى مصاف الآلهة لأنه يحمى . . . بيضة الإسلام . . . وهو ظل الله فى أرضه . . . وهو الذى يدافع عن المسلمين . . . ويقاتل المشركين والكافرين [٢] .

---

(١) فى (الاتجاهات الوطنية) بحث نفيس عن مطامع الدول الأوربية وأعمالها ويراجع عبد الحميد ظل الله على الأرض ص ٦٣ – ٧٢.

(٢) يراجع الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر فصل مدح السلطان .

وقد بقيت هذه الفكرة مسيطرة سيطرة تكاد تكون تامة على الشعر حتى أعلن الدستور العثمانى وبدأت الأحزاب تتشكل وتنتشر الجرائد وأبعد السلطان عبد الحميد عن الحكم . . فهوت قداسة السلطان على الأرض فلم يعد الرمز المقدس الذى لا تصل الأيدى إليه ولا تنوشه الألسن ، وبدا مثل البشر فى سيئاته ومزاياه لا يفرق عنهم شيئاً . . لذلك فعندما كان هذا السلطان فى قوته ونفوذه وسطوته كان الأدباء يحاربون كل من سولت له نفسه الخروج على طاعته سواء أكان العاصى من العرب أم من المسلمين . . فقد كان معنى ذلك انشقاق على الإجماع الإسلامى الذى حاولوا جاهدين الاحتفاظ به وصيانته . . فهم يريدون فى حماية السلطان أن يحموا الوحدة الإسلامية من التبدد والتفرق .

فلا عجب أن نرى بعض الشعراء يتخذون السلطان عبد الحميد رمزاً مقدساً يسيرون فى ركابه ، فقد أشادوا بالحروب التى أعلنها وطربوا للغزوات التى شنها وتغنى الشعراء بالانتصارات التى حازها على أعدائه . . . فكان محور الشعر ومداره وحوله يحرق بخور الأدب . . وينشر عبير الشعر ، ثم جاء من بعده محمد رشاد فأصابته بقايا هذا البخور الأدبى والعبير الشعرى ! !

وقد اشتهر فى هذا القرن شعراء كان منهم الذى شب وترعرع ومات فى العصر العثمانى وهم الذين بحثت شعرهم فى كتابى : (الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر) ، وقسم شب فى هذا القرن ولكنه تأثر بالتيارات الفكرية الجديدة وحركات الإصلاح التى انتشرت فى ربوع الدولة العثمانية . ومع ذلك فقد بقى ولاؤهم حيًّا ونافحوا عن عقيدتهم الإسلامية والتمسك بها ، ومن هؤلاء الشعراء معروف الرصافى . فإنه بالرغم مما كان يراه من انحطاط فى أرجاء الدولة وتفشى التأخر بين أبناء الشعب لم يرض للعرب أن يخرجوا على هذه الدولة ، وأن ينظموا المؤتمرات فى سبيل هذه الغاية ، فقد أيد حركات الإصلاح التى نادوا بها وطالب بها دون أن تخطر فى ذهنه فكرة الانفصال عنها ، كان يريد الإصلاح فى إطار الدولة العثمانية لأنه يرى الانفصال جريمة كبيرة تقترف ضد الإسلام ويؤدى إلى أن يتدخل الأوربى فى شئون المسلمين . لذلك نراه يبارك دعوة الإصلاح التى دعا إليها جماعة من العرب . . . بل إنه دعا العرب للانضمام إلى هذه الدعوة فى قصيدة طويلة منها :

أبلغ بنى وطنى عنى مغلغلـــة ... فى طيهـا كلم فى طيهـا ضرم
مـا بالهم لم يفيقـــوا عـن عمايتهم ... وقـد تبلج إصبـــاح المنى لهم [٣]

(٣) ديوان الرصافى الطبعة الثالثة ص ٣٩٣ مصر .

ولكنه لما رآهم يطالبون باللامركزية والانفصال عن الدولة وأنهم عقدوا مؤتمرهم فى فرنسا [٤] ثار عليهم وزادت ثورته عندما أرسل « حقى العظم » برقية إلى جريدة « الطان Le Temps » طالبا من الحكومة الفرنسية التدخل فى أمر سوريا . . إن هذا الطلب كان دعوة صريحة من العرب المسلمين إلى دولة أجنبية استعمارية أن تتدخل فى أمور دولة مسلمة . . لذلك كانت مهاجمة الرصافى عنيفة دون هوادة . . فقد رآهم فى قصيدته أنهم أثاروا فى البلاد الإسلامية شرًّا وما قصدوا الإصلاح فى دعوتهم هذه وإنما أرادوا تهديم الكيان الإسلامى الشامخ وقد كان شاعرنا حريصاً على إبقائه حرصاً شديداً لذلك قال لعبد الغنى العريسى [٥] الذى عقد مؤتمر باريس .

قل للعريسى والأنباء شائعة ... والصحف تروى لنا عنه الأعاجيبا
علام تعقد فى باريس مؤتمراً ... ما كنت فيه برأى القوم مندوبا

ويخاطب « حقى العظم » ويصف عمله بعمل الحمل الذى يطلب المعونة من الذئب :

وهل تعمد « حقى العظم » فعلته ... لما نما خبراً للطان مكذوبا
إذ راح يستنجد الإفرنج منتصفا ... كأنه حمل يستنجد الذيبا

ولم يكن يؤلم الشاعر إلا عمل « حقى العظم » الذى يريد أن يفر من سيطرة إسلامية إلى استعمار أجنبى لا تربطه به رابطة ولن يكتفى الفرنسيون بالمساعدة فقط كما يظن « حقى العظم » وإنما يريدون استعمار الشام بأجمعها ، وقد تحقق ظن الرصافى بعد ذلك وصدقت نبوءته فيما بعد ، لأنه ثار عندما عقدوا مؤتمرهم فى باريس وتمنى أن يكون مؤتمرهم فى بلد ليست له مطامع استعمارية فهو متفق معهم فى الحاجة إلى الإصلاح لكنه يجب ألا يكون فى ظل حكومة فرنسا فقال :

لو كان فى غير باريس تألبهم ... ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا
لكن باريس ما زالت سياستها ... ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا
ولم تزل كل يوم من سياستها ... تلقى العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتها ... جيش يدك من الشام الأهاضيبا[٦]

---

(٤) فى غمرة النضال – تفصيل عن أهدافهم وأعمالهم ص ١٢٧ – ١٣٠ .
(٥) شنق « جمال باشا » السفاح « عبد الغنى العريسى » خلال الحرب العظمى الأولى .
(٦) ديوان الرصافى ص ٣٩٦ .

وكان الرصافى يذود عن حياض الإسلام والمسلمين لأنه ربى تربية دينية ، وكان من أشد ما يؤلمه أولئك الذين يتخذون من تأخر المسلمين وتخاذلهم سبباً للطعن فى الدين الإسلامى ، لذلك يسرد البراهين ويأتى بالأدلة ، ويسوق الحجج ليبعد تهمة التأخر والانحطاط عن الدين الإسلامى نفسه . . فالدين الإسلامى لم يكن السبب فى تأخر المسلمين عن ركب الحضارة والمدنية . . وإنما كان عاملا قوياً فى تقدم المسلمين الأوائل وازدهار المدنية . . وسعادة الإنسانية قروناً . . ثم إن واقع الدين الإسلامى بنصوصه وتعاليمه يثبت ما له من فضائل ومميزات فهو الدين الذى يدعو إلى المساواة بين البشر فلا فرق بين غنى وفقير أو صعلوك وملك فهم كلهم إخوان متساوون فى الحقوق والواجبات ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالأعمال الصالحة وتقوى الله ، لأن الدين الإسلامى فى طبيعته لم يخلق طبقات من أبناء البشر ولم يفاضل بين ذوى المجد وبين مقطوعى النسب فقال الرصافى يؤيد رأيه :

وما ترك الإسلام للمرء ميزة ... على مثله ممن لآدم ينتمى
فليس لمثر نقصه حق معدم ... ولا عربى بخسه فضل أعجم
ولا فخر للإنسان إلا بسعيه ... ولا فضل إلا بالتقى والتكرم(٧)

وفى ديوان الرصافى الشىء الكثير من شعر ينافح فيه عن عقيدته . وهناك شاعران آخران ألّف كل واحد منهما كتاباً فى الذب عن الدين الإسلامى هما محمد حبيب العبيدى الموصلى وجميل صدقى الزهاوى .

فالزهاوى آلمه أن تظهر الدعوة الوهابية لأنها دعوة تنادى بشىء جديد يختلف عما ألفه العثمانيون ، إنها دعوة تدعو إلى قومية عربية ، وهذا تهديد لكيان الدولة العثمانية فيؤلف (الفجر الصادق) ليهاجم فيه الوهابيين ويقول : الوهابية دعوة رفعت راية العصيان وتجاهرت بوخيم عدوانها ، وسمى الوهابيين بالجماعة الباغية (٨)، وحفظاً للجامعة الإسلامية رأى أن الخلافة لا يشترط فيها أى شرط فلا يجب أن يكون الخليفة إماماً ولا معصوماً ولا أن يكون علوياً أو قرشياً(٩)، كل هذا ليمهد إلى القول بأن حكم آل عثمان حكم شرعى ، ولم يكتف بهذه الشرعية بل يوجب على المسلمين طاعة السلطان العثمانى ويعتبر العاصى كافراً لا يؤمن بالنبى ولا بالقرآن حيث يقول :

---

(٧) ديوان الرصافى ص ١٣٠ .
(٨) الفجر الصادق طبع مصر سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥) المقدمة .
(٩) الفجر الصادق ص ٧ .

من كان يؤمن بالنبي محمد وبما أتى من منزل القرآن
علم اليقين بأنه فى دينه وجبت عليه طاعة السلطان[١٠]

ولسنا بصدد صدق عقيدة الزهاوى أو كذبها بعد أن تنصل من هذا الكتاب وادعى أنه اضطر إلى تأليفه خوفاً من السلطان ، ولكن يهمنا الكتاب نفسه لأنه عكس روح العصر التى كانت تسيطر بومذاك على الكتاب وقد مثل الزهاوى هذا الدور أصدق تمثيل .

أما العبيدى فقد كان السبب الذى دعاه إلى تأليف كتابه « حبل الاعتصام ووجوب الخلافة فى دين الإسلام » أقوى وأعمق من السبب الذى دعا الزهاوى . لأنه رأى أن الوهابيين أرادوا أن ينقوا الدين من شوائبه وأنهم دعوا إلى الإصلاح العام الشامل . ولكن الخطر كل الخطر فى المستعمر الذى يريد أن يقضى على الدين ويهدم الخلافة. لهذا فقد دافع عن الدولة العثمانية التى تمثل عقيدته ودينه ضد مستعمر بعيد عنه فى كل شيء ضد بريطانيا التى تريد أن تقضى على الخلافة الإسلامية . . وقد صرح برأيه هذا قائلا : إن الغرض من تأليف هذا الكتاب الدعوة إلى اتحاد المسلمين وتحت رسالة الهلال وقد برهن فى الفصلين الثانى والثالث على أن الخلافة الإسلامية قائمة بالدولة العثمانية[١١]، وتزول الخلافة بزوال الدولة العثمانية ، ويرى استحالة قيام خلافة جديدة مكانها ثم يسبغ على الخلافة قدسية فى الفصل الأول إذ قال : إن الخلافة الإسلامية خلف النبوة بل النبوات وإنها واجبة قبل كل واجب دينى . . . وعندما يهاجم بريطانيا فهو يهاجمها لأنها تريد أن تزيل الدولة الإسلامية من وجه البسيطة والقضاء على الخلافة التى هى كعبة السياسة للمسلمين والرابطة الكبرى للشعوب الإسلامية[١٢] وفى ظل الوحدة الإسلامية لن تجد فرقاً بين المسلمين فهى قوة واحدة تقف أمام كل اعتداء على المسلمين فى أى قطر من الأقطار ، فإذا دخلت روسيا إيران أو دخلت إيطاليا طرابلس أو حاربت بريطانيا الدولة العثمانية ، نجد الفتاوى من علماء

---

(١٠) وقد كان رجال الدين يتقربون إلى السلطان بوسائل شتى منها البحث عن الأحاديث المنسوخة وغير الصحيح منها فلا يرون للملوك إلا ما كان حتماً على طاعتهم مثل قولهم (قلب السلطان بين أصبعى الله يقلبه كيف شاء) وقولهم (الملوك ملهمون) وقولهم (اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) كل ذلك يفسدون به أخلاق الملوك تقرباً إلى جفانهم . . لاحظ (المعلوم والمجهول) مصر سنة ١٩٠٩ ص ٤٣.

(١١) هناك كتاب آخر باسم (جنايات الإنكليز) طبع فى بيروت سنة ١٩١٦ .

(١٢) حبل الاعتصام بيروت ١٩١٦ ص ١٢٠ .

الدين تنشر لتحث المسلمين جميعاً على محاربة الكفار فى ديار الإسلام[١٣]، فالاعتماد على الرابطة الإسلامية معناه اعتماد على شعوب كبيرة لها سيطرتها وقوتها لذلك كان السلطان يحرص كل الحرص على هذه الرابطة لأنها الوتر الحساس الذى يطرب له العرب والمسلمون . فإذا أرادت الدولة أن تبنى أسطولا تكون الدعوة للمساهمة فى هذا البناء باسم الدين وباسم المحافظة عليه ، فيجد المسلمون لزاماً عليهم هذا التبرع وهل هناك من لا يريد أن يحافظ على الدين الإسلامى أو يريده معرضاً لخطر الكفار ، فلا عجب أن دعا محمد طاهر السماوى النجفى الناس إلى التبرع والمؤازرة باسم الدين ، فقد تصور سير الأسطول فى البحر وحده يكفى المسلمين فخراً وعزة ومنعة لذلك من المحتم أن يتبرع فى سبيل إنشائه الصغار والكبار لأنه أسطول إسلامى حينما قال :

وبحق المجد قد ناشدتكم ... يا حماة المجد شيخاً وغلاما

أن تساعدوا فى بناء هذا الأسطول لأن فيه أبطال المسلمين وأحلافهم وهؤلاء هم الذين أبلوا بلاء حسناً فى المعارك عندما فتحوا الأقطار لرفع راية الإسلام وحينما قال :

فيه أبناء اليامين الألى ... دوخوا الأعداء حرباً واصطلاما
من بنى الإسلام أو أحلافهم ... كل مشتاق إلى الحرب غراما
فتحوا الأمصار قدماً بالضبا ... تنفد الأكباد أو تنقف هاما[١٤]

ولم تكن الروح الإسلامية مقصورة على ناحية من نواحى الشعر أو على اتجاه معين وإنما كانت مسيطرة على كثير من قصائد الشعر التى كان يمدح بها القواد والولاة . فعندما يمدح الشاعر والياً أو قائداً فهو يمدحه لأنه يؤازر الخليفة الإسلامى ولأنه يد قوية ترمى الأعداء الذين يريدون أن يعتدوا على الدين الإسلامى . وأن السلطان العثمانى هو الخليفة وأنه أمير المؤمنين وهو إنسان لا ينتخب إلا من يجد فيه المقدرة والكفاية الحربية والإدارية والفكرية . . ويهتز الشعراء طرباً للانتصارات العثمانية ، والحروب التى يفوز بها الجيش العثمانى . . لأنها حروب فى سبيل إعلاء راية الإسلام والمسلمين ، ومن أمثلة ذلك « عبد الرحمن البناء »[١٥] ، فهو يفرح بهذا الانتصار العثمانى لأن الانتصار فيه حفظ لمركز الخلافة

(١٣) مجلة لغة العرب جـ ٧ كانون الثانى (يناير) ١٩١١ .

(١٤) جريدة الرقيب ١٠٤ السنة الأولى ١٣٢٨ هـ .

(١٥) لايعد عبد الرحمن البناء من شعراء الطبقة المعدودة فهو ذو قابلية شعرية فياضة ولكن لم تقدر له ظروف المعرفة العالية والدراسة المنظمة .

فقال :

حافظوا مركز الخـــلافة حتى عـاد ما حاول العدى مستحيلا[١٦]

ومثله الشاعر « على البناء »[١٧] ، فقد مدح القائد « خليل باشا » فى معركة الكوت[١٨] لأنه رأى الجيش الإسلامى العثمانى الذى يقوده خليل باشا قد انتصر على جيش الكفار الذين يريدون كسر راية المسلمين وقد رجع هؤلاء الكافرون خاسئين ذاهلين ، فقال يخاطب القائد :

لقد خفقت رايات عزك بالنصر وأطفأت فى ماضى الشبا سورة الكفر
أمدك رب العرش فى الجند هيبـــة ملأت قلوب الشرك فيها من الذعر

ثم يهنئ الإسلام بالنصر الذى أحرزه القائد ويطرب للانتصار الذى ناله ثم يمدح السلطان رشاد فخر الإسلام بقوله :

لتهنى بهذا ملة الدين إنه سرور بنى الإسلام فى كل ذى قطر
وتكسى فخاراً آل عثمان سرمداً بما فيهم قد شد للدين من أزر
وسلطانها الغازى رشاد عمـــادها وفخر بنى الإسلام بل مفخر الفخر[١٩]

ولم تكن هذه الروح الإسلامية مقصورة على شعراء بغداد الذين لهم نضال مباشر بمركز الحكومة وقد تكون لهم مصالح خاصة ، إنما كان ذلك فى جميع أنحاء العراق دون فرق بين الطوائف والقوميات ، فقد تغلبت النزعة الإسلامية على كل نزعة ووقفت كل الطوائف الإسلامية بشهامة تناصر الدولة العثمانية فى جميع حروبها . فعندما أعلن الجهاد فى الحرب العظمى على خصوم الدولة العثمانية كان العلماء الأعلام يحفزون الشعب على الدفاع عن الدين الإسلامى فقد نظم « كاظم آل نوح » خطيب الكاظمية قصيدة تشيد بالانتصارات العثمانية لأنها تمثل انتصارات المسلمين فيقول متسائلا :

أحرز المسلمون فى هذه الحر ب انتصاراً لم ينس فى كل جيل

---

(١٦) جريدة صدى الإسلام ٢١٥ / ١ / ٣٣٤ هـ .

(١٧) لم يكن من الشعراء المشهورين .

(١٨) سنتحدث عن هذ مفصلا فى فصل تال فى حروب الدولة العثمانية .

(١٩) صدى الإسلام ٢٦٦ فى ٣ شعبان ١٣٣٤ هـ .

أأهيل الناقوس تغلب فى الحر ب أهيـــل التكبـير والتهليل

ثم ينظر بازدراء إلى جيش الكفر الذى يحارب العثمانيين ويصفهم بأنهم كالسوام التى تريد أن تحارب الأسود ولكنها عادت فاشلة :

ما هم الكفر إنما هم سوام أفتخشى السوام أسـد الغيـل
قفل الكفر عن أسـود الغيـل خاسئاً ذاهـلا باثراً قفـول (٢٠)

ومن الشعراء المشهورين الذين ناصروا الجيش العثمانى من النجف الأشرف « محمد على اليعقوبى » حيث أسماه الجيش الإسلامى الذى يحرس الدين والوطن ويشيد ركن الإيمان فترتفع ذرى الإسلام شامخة :

حييت فى الحرب بنصر الرحمن يا كالئ الدين وحامى الأوطـان
شيدت فى بيضك ركن الإيمان وأصبح الإسلام عـــالى الشـان
ومجدنا عاد رفيع البنيـان(٢١)

ولم تكن هذه المناصرة مقصورة على شاعر أو طبقة ، فقد نظم فى هذا الباب محمد مهدى البصير ومحمد رضا الشبيبى وكاظم الدجيلى كما سنراه مفصلا .

فقد قال البصير مخاطباً وزير الحربية العثمانية أنور باشا عندما زار العراق :

كم وقفة لك دون مـلة أحمـــد فيها برأيك بل بسيفك تنصر(٢٢)

وبقى الحنين طويلا نحو الدولة العثمانية لأنها تمثل الاتجاه الإسلامى حتى بعد أفول نجم هذه الدولة واندحارها واحتلال الإنكليز العراق ، فقد نظم كاظم الدجيلى قصيدة يؤيد فيها الملك حسين لكنه عطف على الدولة العثمانية بقلب ملؤه الأسى والأسف والحسرة لما حاق بها ولم يكترث بما سيلقاه من الدولة الإنكليزية ، مع أن القصيدة قد نشرت زمن الاحتلال البريطانى فقال :

سـلام عـلى أبنـاء عثمان وافـــر فدولتهم أضحت بأيدى مواليهـا

---

(٢٠) صدى الإسلام ١٥٨ / ١ / ١٣٣٤ هـ .
(٢١) صدى الإسلام العدد ١٧٢ / ١ / ١٣٣٤ هـ .
(٢٢) صدى الإسلام العدد ١٨٣ من السنة نفسها.

ثم يهيب ببانى الدولة العثمانية وأشهر سلاطينها بأن يقوموا من قبورهم ، لأن دولتهم أصبحت بيد الأعداء وأن عاصمتهم غدت محتلة من قبل الأجانب :

أعثمان قم وانظر إلى الملك مهملا ... فدولتك العليا قد انحط عاليها
أفاتح إسطنبول فانهض لحفظها ... فقد حكمت فيها عداك مواضيها
غزتها رجال كنت تغزو بلادها ... وتفتحها قهراً فسموك غازيها
سليمان فاجلس للعزاء فدولة ... تكفلتها قد مات بعدك حاميها
وأصبح فيها ضاحك السن باكياً ... ومادحها بالأمس ذا اليوم راثيها[٢٣]

وقد قال السيد عبد المطلب إن العرب والترك إخوان يجمعهم الدين وللأتراك فضل لأنهم قد حموا الدين من الكافرين فخاطب العرب بقوله :

أقول للعرب إن الترك إخوتكم ... والدين أمٌّ لكم أضحى معاً وأبا
ماذا الذى قد نقمتم منهم وهمو ... فى أول الدهر شادوا للهدى قببا
هم الذين أقاموا الدين فى قضب ... فى حدها عاد حبل الكفر منقضبا
وحطموا بالضبا الأوثان وانصلتوا ... إلى الكنائس حتى حطموا الصلبا[٢٤]

وقد خاطب الشبيبي معاتبا الأتراك على ما قدموه من إساءات وكيف أن العراقيين صفحوا عنهم وعن زلاتهم ، كل ذلك حتى لا تتفرق الوحدة الإسلامية التى تربطهم بها مع ما قتلوا وشنقوا وأسروا[٢٥] ، وقد كان الرصافى صريحاً كل الصراحة فى ندب أيام الدولة العثمانية وقد أظهر وفاءه لأيامهم مع أنه يلومهم لأنهم فرطوا فى حقوق العراق وتركوه نهباً بيد العدو ، إذ راح يملأ نفس الشعب أملا بعودة العثمانيين لإنقاذهم من الاستعمار البريطانى ، فقد فضل أن يبقى العراق عثمانياً على أن يكون مستعمرة بريطانية ، فقال يرد على سليمان نظيف الذى يعاتب العراقيين على لسان دجلة :

أنا باق على الوفاء وإن كا ... نت بقلبى ممن أحب جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو ... بلغيهم شكايتى يا رياح[٢٦]

---

(٢٣) دار السلام العدد الأول السنة الأولى سنة ١٩١٨ ونشرت بتوقيع ك . د
(٢٤) شعراء الحلة جـ ٣ ص ٢٠٩ .
(٢٥) ديوان الشبيبى ص ٢٦ – ٢٩.
(٢٦) ديوان الرصافى ص ٤١١ .

ويتحسر الزهاوى على أيامه التى قضاها فى زمن الدولة العثمانية فيقول :

أين عزى فى دولة الأتـــراك　　أنا ممـــا فقـدته أنا باكى
كنت بالأمس راضيـــاً عن حياتى　　وأنا اليـوم من حيـــاتى شاكى[٢٧]

ولم تخمد الروح الإسلامية وقد بقيت مسيطرة على نفوس العراقيين طويلا حتى بعد ظهور الروح القومية وفشل الجامعة الإسلامية ويأس دعاتها من تحقيقها ، ومن الشعراء الذين لهم أثر كبير فى تاريخ الأدب فى العراق الرصافى فهو من الذين لم يتغير فى رأيه وعقيدته ، فقد نظم قصيدة فى الحرب العالمية الثانية يقول فيها :

قل لمن رام صـــدعنا بشقـــاق　　أنت كالوعل ناطـــح الصفـــوان
ويك أن الإسلام أوجـــد فينـــا　　وحـــدة مثـل وحدة الرحمـــن
فاعتصمنا منهـا بحبل وثيـــق　　هـــو حبـل الإخـاء والإيمـــان
ليس معنى تـــوحيـــدنا الله　　إلا اتحـــادنا فى الكيـــان[٢٨]

(٢٧) اللباب ص ٦٥ بغداد ١٩٢٨

(٢٨) ديوان الرصافى ص ٤٦٧ وقد أخبرنى سيادة الأستاذ مصطفى على أنها نظمت بعد الحرب العالمية الثانية .

٣

الدستور العثمانى

كان إعلان الدستور العثمانى بداية عهد جديد فى التفكير العربى عامة والعراقى خاصة ، فقد أثر كثيراً فى تغيير الاتجاه العقلى وفتح الأذهان على مثل جديدة وألفاظ حديثة لم تكن مألوفة لأهل القرن التاسع عشر وما نشأوا عليه من استبداد مطلق وتحكم فى رقاب الناس ، فقد تفاءل الشعب به كثيراً فى أرجاء الإمبراطورية العثمانية وظنه يخصب الأرض ويثرى الفقير ويكسى العريان ويشبع الجائع ويطلق للناس حرية كاملة فى التعبير عن آرائهم بصورة مطلقة لا تحدها قيود ولا تقف أمامها حدود .

أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ فكان صدى إعلانه كبيراً على الشعب ، وخاصة الشعراء ، فقد فرحوا فرحاً شديداً به وبدت علائم الفرحة تسرى فى شعرهم ، وقد انقسم هؤلاء الشعراء إلى قسمين أو اتجاهين :

الاتجاه الأول وقد ضم جماعة ممن عاشوا على التراث التقليدى وهو امتداد للقرن التاسع عشر فى أسلوبه ومعالجته للموضوع فوجدنا فى شعرهم المبالغة ورصف الألفاظ ، والإطالة التى تطفح بحشو يخرجهم عن الموضوع الذى نظموا فيه ، فقد يبدءون القصيدة بالغزل أو بمدح إنسان ويبعدون عن الموضوع كثيراً وعن أساسه ، ومن أمثلة هذا الاتجاه حسن العذارى ، وصالح الحلى ويكاد ينضم تحت هذا أكثر شعراء النجف .

والاتجاه الثانى انبثقت تياراته من شعراء ابتعدوا عن أجواء المساجد والبيئات الدينية الصرفة وانضموا إلى ركب الحياة الواقعية ، وفى هذا الاتجاه وجدنا بذور التطور الحديث تنمو فى أسلوب الشعر ومعانيه وأغراضه وأهدافه . . وقد كان هؤلاء من الشباب المندفع الذى أوتى حرارة الشباب وحماسة العمر فأيدوا الدستور باندفاع ، فقد أخذ الزهاوى والرصافى يخطبان فى الناس ويشرحان لهم فوائد الدستور[١] وقد كان محمد رضا الشبيبى عضواً

(١) سحر الشعر ص ٥٢ مصر ١٩٢٢

من أعضاء حزب الاتحاد والترقى العاملين[٢] ، كما انضم الأزرى إلى حزب الائتلاف[٣] . والواقع أن الشعراء آزروا الدستور العثمانى آملين فيه المساواة مع الأمم الأخرى ، والحرية للتعبير عن آرائهم ، والعدالة التى يجب أن تشمل بلادهم[٤] فجاء شعرهم أناشيد تطفح بالحرية والتغنى بمحاسنها ومزاياها وما ستدره على الناس من خير ، ثم تطرقوا فى شعرهم إلى مساوئ الاستبداد والطغيان والحكم المطلق ، الحكم الدكتاتورى الفردى ، الذى يؤدى دائما إلى الانحلال والتقهقر ونشر الفساد وهدر قيمة الشعب فى جميع الأمور والاعتداد بشخصية الحاكم مهما كانت تافهة جاهلة .

ومن أمثلة شعراء الاتجاه التقليدى السيد عبد المطلب الحلى فقد وجدت له قصيدة يندد فيها بالعهد الاستبدادى الذى كان مخيماً على الشعب وما جره هذا العهد على البلد من فساد وفوضى ، ثم يشيد بالعهد الدستورى الجديد . والقصيدة تطفح بالمبالغة ويكثر فيها الحشو وتعتمد على المحسنات اللفظية ، فى الأبيات الثلاثة التالية يقول :

لك الأمر فاحكم بالذى أنت عالم ... فمن ذا يرد الحكم والله حاكم
عن القـائم المهدى قمت بأمره ... أيا قائماً أنهى له الأمر قائـم
عزمت فأغرمت المليك وقد نجا ... بحق الهدى والمتلف الشىء غارم

فى الأبيات جناس اشتقاق بين حكم وحاكم . . . وجناس تام بين القائم المهدى الإمام الثانى عشر والقائم الممدوح . . . وفى الفعلين عزم وأغرم جناس تصحيف فى حرفين . . ثم نجد الطباق والمقابلة فى المتلف والغارم . . . إلخ ذلك .

ويستمر فى القصيدة على هذا النسق إلى أن يصل إلى القصد فيهاجم الجور ، والظلم ، والاستبداد ، الذى يحطم المستبد كما حطم عبد الحميد الذى لو عدل بين الرعية وساوى بينهم ونشر لواء الحرية والمساواة لما أصبح رهين القيد كسيراً ذليلا ، وبعد ذلك يتطرق إلى مدح أولئك الذين أفاءوا على الشعب بالحرية والعزة وهم أعضاء جمعية الاتحاد والترقى[٥]

---

(٢) معروف الرصافى – طبانة – ص ٧ مصر ١٩٤٧.

(٣) الأدب العصرى جـ ٢ ص ٥١.

(٤) ومن هؤلاء خيرى الهنداوى فقد وقف قلمه على نظم القصائد وكتابة الفصول فى تحبيذ الحرية والدعوة لها – – الأدب العصرى جـ ٢ ص ١٦٢.

(٥) بشأن حركة الاتحاد والترقى يراجع المقال The Young Turk Movement فى كتاب صدر فى نيويورك عام ١٩٢٤ اسمه : Modern Turkey وقد ألف من قبل Eliot G. Mears الصفحات ما بين ٤٧٦ – ٤٩٠.

الذين زحفوا من سلانيك بعزم وقوة وإيمان لإرغام الجبار على التسليم بحقوق الأمة فيقول :

فهبت رجال من (سلانيك) أيقظت ... إلى العدل عين الحزم والحزم نائم
رجال هم الأسـد الضراغم صولة ... لدى الروع لا أسد العرين الضراغم
دعـوا للتساوى دعوة وطنيـة ... أجاب لها منهم جهول وعـالم (٦)

ويمتدح بعد ذلك الخليفة الجديد محمد رشاد آملا فى عصره الخير والرفاه والسعادة ، ولا يخرج عن أسلوب القرن التاسع عشر من حيث العناية بالألفاظ ، فيقول إنه بيض وجه الملك الذى سودته المظالم وأصبح ثغر الليالى مبتسما . . .

أما الشاعر الآخر الذى نأخذه مثلا لهذه الطبقة فهو الشيخ حسن العذارى ، فقد بدأ قصيدته بغزل متكلف ليس فيه روح وتأبى الروح أن تسرى فى أوصاله ، ثم يتخلص منه إلى مدح السلطان محمد رشاد ويراه بدر الخلافة ينير الدولة العثمانية ويبشر الأمة بأن عهده عهد العدالة ومحق الظلم ، وقد تساوى فى زمنه الشعب أو الرعية ، ثم يطيل فى قصيدته ويخلص إلى مدح حزب الاتحاد والترقى ، الحزب القوى الأمين الوطنى المخلص الذى قضى على استبداد عبد الحميد وعلى أيامه فيقول :

ما الانتظـار وما القعود ذوى النهى ... شرف (الترقى) بابه لا تـوقب
لا تقعـدوا متكاسلين عن العـلا ... من شاء أن يصل الغزالة يتعب (٧)

أما الاتجاه الشعرى الثانى الذى ناصر الدستور فهو اتجاه العصر الذى كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء ، ومن هؤلاء معروف الرصافى الذى نظم كثيراً (٨) فى الدستور وناصره مناصرة المؤمن به الحريص عليه ، فوصف يوم إعلانه وكيف استقبل الناس هذا الإعلان ووصف مشاعره وتطرق فى شعره إلى مجلس المبعوثان وما يأمل على يد هذا المجلس من الخير للشعب ، ثم هاجم السلطان عبد الحميد ممثلا للاستبداد والحكم المطلق والجور والطغيان ثم ناصر الجيش الذى عزل هذا السلطان وقضى على حركة الرجعية التى أرادت بالبلاد الشر والفساد وأرادت القضاء على الدستور . وعندما لم يطبق الاتحاديون نصوص الدستور

---

(٦) شعراء الحلة للخاقانى – ٢٣٣ – ٢٢٦ جـ ٣ نجف ١٩٥٢ وله قصيدة أخرى يمدح فيها الاتحاد والترقى ص ٢٠٩ ويراجع تفصيل طريف فى الفصل الثانى عشر من كتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) .

(٧) شعراء الحلة ٦١ – ٦٥

(٨) لاحظ ديوان الرصافى الصفحات ١١٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ .

ولم يرعوا حقوقه شكا إليه بحرقة وألم مما حاق به وبالبلاد من عدم تطبيق أحكامه ، ولما سقطت وزارة الاتحاديين سجل هذا بقصيدة . ويكاد الرصافى أن يكون المؤرخ العراقى لهذه الفترة من حياة الأمة . . هذه الفترة الحافلة ، فترة نضال بين شعب يريد أن يسترد حريته وبين رجعية تريد أن تنقض عليه وتستعبده خادماً مطيعاً ذليلا . . لذلك كانت أفراح الرصافى أفراح شعب أو أفراح شعوب فى الشرق أو فى الغرب عندما فرح بالدستور . . وغنت الدنيا طرباً به . . عندما زف رجال الجيش هذا الدستور للشعب . . فأقبل الشعب شاكراً راضياً فقال :

سقتنا المعالى من سلافتها صرفا ... وغنت لنا الدنيا تهنئنا عزفا
وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا ... فأهلا بما زفت وشكراً لمن زفا
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكراً ... وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفا
ورحنا نشاوى العز يهتف بعضنا ... ببعض هتافاً يصعق الظلم والحيفا
ولاحت لنا حرية العيش عندما ... أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا(٩)

وقد شارك عبد المحسن الكاظمى فى مهجره بالإشادة بالدستور بقصيدة طويلة جاوزت المائة بيت ، فقد رأى الدستور خفاق اللواء وإن ذكره العاطر قد انتشر بين المحافل ، وتبرز لنا أشواق الكاظمى للدستور شعور الناس وما انتابهم من غبطة وسرور بهذا الإعلان ، وبذلك قد ثبت أن جميع أبناء الدولة العثمانية أو رعاياها قد فرحوا بهذا الإعلان آملين خيرهم وسعادتهم . . وقد رسم الكاظمى صورة طريفة وصف فيها مشاعر الناس وحالهم بعد ما تخلصوا من العبودية . . وغدوا جميعا إخواناً وصفهم وهم يتعانقون ويصافح بعضهم البعض . . شأن كل عمل خير يعود على الأمة فيوحد بينها . . وتطغى على الشاعر الفرحة وموجة التفاؤل . . فيوجب إحياء الليل والنهار فى هذا العيد الذى لا يدانيه عيد ، إنه عيد الإنسانية جمعاء ، عيد الحرية وما أجمله من عيد فيقول :

هو العيد أحيوا ليله ونهاره ... وحيوه بالبشر الذى هو لائق
وما مثل هذا العيد عيد تجلة ... جميع الورى أعداؤه والأصادق(١٠)

فرح الكاظمى وهو فى مصر ، وكانت مصر منقطعة الصلة السياسية بالعاصمة

---

(٩) ديوان الرصافى ص ١١٣.

(١٠) مجموعة شعر الكاظمى ج ٢ ص ١٢٦ مصر ١٩٤٨.

إلا بالاسم ، فراح يهتف باسم الشعب ويهتف للحرية التى ستعم العثمانيين وغير العثمانيين ، لأن الأقلام ستكون طليقة حرة تكتب ما تريد وتعبر عن الرغبات بصراحة وبأمانة لا تخاف من السلطان ولا من أعوانه ، وبذلك فقد دالت دولة الظلم بعد أن قاسى الشعب من إرهاقها ما قاساه من الآلام وعانى ما عاناه من تحمل الذل والهوان ، ثم يصف الثقة بالمصلحين وبما يحققه الدستور للشعب بقوله :

ولما تبدى للعيان تيقنوا ... بأن بروق المصلحين صوادق
إذا ما دعوا للحق صمت وجلجلت ... مسامع أخزاها الهوى ومناطق
أجابوا نداء الشعب رغم أنوفهم ... وقالوا سلاماً والصدور حوانق[١١]

وقد سرّت ثورة حزب الاتحاد والترقى على السلطان محمد رضا الشيبى ، لأنه يرى أن الثورة تحقق مطالب الشعب بإعلان الدستور ، لأن الدستور كالنور الذى ينبعث فى الظلمة الحالكة فيحيلها عالماً واضحاً مشرقاً جميلا بعيداً عن الأشباح والمخاوف . فتعم الفرحة الشعب بهذه الإشراقة الحبيبة وتخطر النجوم فرحاً وابتهاجاً بالدستور . . وكيف لا تضحك البحار وتبتسم النجوم وتشرق الدنيا وقد تحرر العبد وانتشرت الحرية بين الشعب

طرقت وضاحية النهار دجنة ... والحر عبد ، والدنى أملاك
فأضاء عنها البرق ينبض عرقه ... سلكا عليه حلى السنا أسلاك
ضحك المحيط لوقعها وتبسمت ... عن ثغر أنجمها لها الأفلاك[١٢]

أما الزهاوى فيلقى خطبة طويلة بعد إعلان الدستور عندما تعقد جمعية الاتحاد والترقى فى بغداد اجتماعاً ويرى أن الدستور العثمانى قد حقق العدالة ، ثم يصف هذه العدالة بالفتاة الجميلة وقد تجمع حولها الأحرار يحمونها من المعتدين والمستبدين ، ثم يتطرق إلى فضل الحرية على الأمة التى تطلق الشعب من أساره فلا يعرف الذل الدائم عندما تنشر ألويتها ويعرج على الظلم يندد به ويهاجم الظالمين الذين يسوقون الشعب بالسوط ويحكمونه بقوة الحديد ويسخرونه دون أن يراعوا له عاطفة أو إحساساً فيقول :

والظلم مفسدة ما حل فى بلد ... إلا وأزعج فيه أى إزعاج

---

(١١) المصدر السابق ص ١٢٩

(١٢) ديوان الشيبى ص ٥٢ طبع مصر سنة ١٩٤٠

قد أعلنت للورى حرية فمضى زمان سخرة ذى أمر وقرباج[١٣]
وأطلقت كل نفس من إسارتها هذا الذى كان يرجو نيله الراجى[١٤]

وللزهاوى قصيدة أخرى بلغت خمسين بيتاً نظمها بعد إعلان الدستور ، وموت صديقه وزير الحربية رجب باشا وفيها تطرق إلى شعار الاتحاديين (الحرية والعدالة والمساواة) وأثر هذا الشعار فى حالة الشعب ، ويقف عند العدل ويشبهه بالغانية الجميلة التى تحلت بالأحجار الكريمة فبدت زاهية حالية[١٥]

ومن الذين عقدوا الآمال الجسام وطربوا طرباً شديداً عبد الرحمن البناء ، فقد رأى الحرية فتاة حلوة الشمائل رقيقة السجايا لطيفة المزايا وأنها ستغمر الشعب بهذه المحاسن ، وضمن شعره بكلمة مشروطة التى أخذها من المشروطية[١٦] التى يرى العدل بها منتشراً والجور مولياً الأدبار ناجياً هارباً من العدل الساطع الأنوار .

أما إبراهيم منيب الباجهجى فقد نظر من زاوية أخرى ، زاوية الأحزاب ، فقد رأى الدستور يهدم بناء المفسدين بعد أن شاد الأحرار مجدهم شامخ الذرى سامقاً بين الشعوب ، وأن دولة الإسلام ارتفع نجمها بين الأمم لأن يوم الدستور هو عيد الشعب ، وهل غير الحرية والدستور من أمانى هذا الشعب حين قال :

يوم تهدم ركن المفسدين به وقد تشيد للأحرار صرح علا
يوم به خاب حزب المستبد وقد ولى ونال بنو الشورى به الأملا[١٧]

هكذا كان حال الشعراء الذين عكسوا أفراح الشعب وأمانيه وأحلامه فى الدستور ، وفرحوا بالانقلاب الجديد واصفين بشعرهم ما كان للدستور من أثر فى جميع الشعوب من مختلف الأجناس ومتنوع الأديان والقوميات . . لأن الدستور معناه المساواة بين الناس دون النظر إلى أى اعتبار إلا كونهم مواطنين ، بيد أن عبد الحميد نكث بعهده الذى قطعه فى المحافظة على الدستور وأغرى الصحف بمهاجمته وتلمس الأسباب المفتعلة للقضاء عليه

---

(١٣) القرباج – السوط – تركية .
(١٤) الكلم المنظوم بيروت ١٣٢٨ ص ١٨٣.
(١٥) الكلم المنظوم ص ١٨٥ وديوان الزهاوى ٢٧٤ و ٢٧٥.
(١٦) صدى بابل العدد ٥٥ / ١ شعبان ١٣٢٨ هـ.
(١٧) زنابق الحقل طبع بغداد ١٩٣٩ ص ١٢٠.

معتمداً على بعض رجال الدين للقيام بحركة رجعية . مما دفع بالجيش إلى أن يستعمل القوة ويدخل الآستانة ويحاصر قصر عبد الحميد (يلدز) ويشتبك مع رجال عبد الحميد ويحمل السلطان على التسليم ويقبض على أنصاره ويعدم عدداً منهم . . . وتجتمع الجمعية العمومية فتعزل عبد الحميد وتولى السلطة السلطان محمد رشاد فى ٢٧ من نيسان (أبريل) ١٩٠٩ (١٨) .

هذه السياسة الرجعية للقضاء على حقوق الشعب التى حصل عليها تبدو واضحة فى شعر هذه الفترة ، ويبرز اسم الجيش واضحاً وينظم الشعراء فى تمجيده وتخليده ، ويهاجم الشعراء سياسة عبد الحميد التى انتهجها تلك السياسة الظالمة سياسة التفرد بالحكم وجر البلاد إلى الانحطاط والتدهور والتأخر وكبت حريات الشعب ، والتنعم بملذات الحياة . ويقف الرصافى على رأس هؤلاء الشعراء العرب فيصف زحف الجيش الذى قدم من سلانيك إلى الآستانة لقمع الحركة الرجعية التى تناصر حكم السلطان عبد الحميد وتؤيد سياسته (١٩) . ويصف جنود هذا الجيش الذى وحد الهدف السامى بينهم برغم اختلاف أديانهم وقومياتهم ، وهل هناك هدف أسمى من الحرية والمساواة والعزة والكرامة ، يوحد الشعوب فتسير من أجله نحو المنية ؟ . فيقول :

فكانوا الجيش ألف من جنود ... مجنـــدة ومـن متطوعينـــا
تراهـم فيـــه متحـدين عـزماً ... وما هم فيـــه متحدين دينـــا
هى الأوطان تجعل من بنيهـــا ... إخـاء فى محبتها رصينـــا
وتتركهم أولى أنف كبـــارا ... يرون حيـــاة ذى ذل جنـــونا
وأن المـوت خـير من حيـــاة ... يظـل المـرء فيهـا مستكينـا

لقد رأى الرصافى أن ضياع الدستور وكبت الحريات ونجاح الحركة الرجعية التى يقوم بها السلطان عبد الحميد ما هى إلا العودة بالشعب إلى عهد الاستبداد وتحكم الفرد بالجماعة إيثاراً للذته وشهواته ورغبة فى إعادة الظلم والجور والطغيان إلى سابق عزه وضراوته على أبناء الشعب فقال :

---

(١٨) الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد حسين ، مصر ١٩٥٤ ص ٣٠ .

(١٩) فى ديوان الرصافى وصف لأحد المشنوقين الرجعيين ص ٢١ ونلاحظ فى جريدة الرقيب العددان ١٥ و ١٧ من السنة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ بصدد حركة بعض القبائل لمناصرة السلطان عبد الحميد وقمعها من قبل يوسف باشا . وفيها شعر لمحمد طاهر السماوى .

فقد هاجوا على الدستور شرًّا بدار الملك كى يستعبدونا
هم الأشرار باسم الدين قاموا فعاثوا فى المواطن مفسدينا

ولكى يضرب مثلا حيًّا للطغاة ودرساً خالداً للظالمين استمر فى وصفه دخول الجيش إلى قصر يلدز والقبض على السلطان عبد الحميد وإرساله سجيناً إلى سلانيك لأنه لم يرع حرمة الدستور واليمين التى حلفها من أجل صيانته فقال :

لقد نقض اليمين وخان فيها فذاق جزاء من نقض اليمينا
وقد كانت به البلدان تشقى شقاء من تجبره مهينا
فكم أذكى بها نيران ظلم وكم من أهلها قتل المئينا[٢٠]

والرصافى شاعر الحرية لم يكتف بقصيدة واحدة للدفاع عن الشعب وعن حقوقه ، إنما كان مثلا حيًّا ولساناً ناطقاً معبراً خير تعبير عن أمانى الشعوب ، فقد وقف نفسه فى سبيل الذود عن الشعب وعن حريته ومحاربة الجور والحكم الفردى ، وفى ديوانه الشعر الغزير ، نظمه فى مناسبات كثيرة ، ومن هذه القصائد ما كان منها قبل إعلان الدستور وبعده[٢١] وبذلك الدليل الواضح على أن الشعب كان له من شعور وإحساس بمرارة الظلم والاستبداد قبل أن يوقظ الدستور حماسة بعض الشعراء فيدفعها إلى النظم ، ومن هذه القصائد تلك التى نظمها بعد سقوط عبد الحميد ، خاطب فيها القصر (يلدز) الذى كان يطفح بالغبطة والسرور والصفاء ، وإلى جانبه شعب يفيض بؤساً وشقاء وآلاماً . فيخاطب ملوك العالم وطغاته جميعاً ويجعل من عبد الحميد مثلا ودرساً يجب على الملوك اتخاذه عبرة حتى لا تسول لهم نفوسهم يوما بالاعتداء على حقوق الشعوب بخنق حرياتها وإهمال مصالحها ، لأن عاقبة الظلم والطغيان وخيمة تجر على صاحبها الويل ، وما تقييد الملوك لحريات الشعب إلا لخوفهم من ثورته التى تركتهم يعيشون فى رعب وجزع من هذه الحرية . . التى تجرهم إلى مصيرهم المحتوم :

يا ملوك الأنام هلا اعتبرتم بملوك تجور فى الأفعال
ليس عبد الحميد فرداً ولكن كم لعبد الحميد من أمثال
فاتركوا الناس مطلقين وإلا عشتم موثقين بالأوحال

(٢٠) ديوان الرصافى القصيدة ص ٣٧٤ – ٣٧٧.
(٢١) لاحظ فى ديوان الرصافى الصفحات ٤٥ و٦٣ و١١٦ – ١٢٢ و ١٦٢ – ١٦٤ و٣٧٧ – ٣٨٠.

هل جنيتم من التـــجبر إلا كل إثم عليكم ووبـــال[٢٢]

وقد كان لأعمال عبد الحميد أثر كبير فى نفوس بعض الشعراء ، فقد لاحقه حتى سجنه وتصوره يلوم نفسه حسرة وألما على ما قدمت يداه ، وما فرط فى حقوق الشعوب التى كان يحكمها . . ذاكراً تلك الأيام العذاب ، لائماً الدهر الذى أنزله من عرشه ، بينما أصبح الذين كانوا رعايا أسياده وحكامه والمتصرفين فى أمره ، فيقول إبراهيم منيب الباجهجى :

أرقت ومالى مؤنس غير وحشتى وتسكاب دمع صاعد من حشاشتى
أفكر فى ماض سعيد قضيته فأعقبه دهرى الخؤون بشقوتى[٢٣]
سقاك الحيا يا معهد الأنس والمنى فبعدك شابت بالفـراق شبيبتى

ويخاطبه عبد العزيز الجواهرى بقوله :

أراك أسـير أحـزان وقيـد وكنت أراك ترسف فى السرور
وقد كنت الأمير عـلى السـرايا فكيف رسفت فى قيد الأسـير
غريب لو جزيت الخير لكن جزيت الشر يا شر الدهـور
لقـد أوغرت صدر الجند حتى أراك الله عاقبة الغـرور[٢٤]

وقد شارك عبد المحسن الكاظمى إخوانه فى العراق فى لوم الاستبداد واعتبر عبد الحميد ممثلا له وأن عهده عهد المآسى والأحزان التى انصبت على كل الشعوب التى كان يحكمها . . وبعد ذلك يعرج فى القصيدة إلى نكث عبد الحميد للعهد الذى أقسمه فى حماية الدستور والمحافظة عليه ، ولا يكتفى بذلك إنما يندد بعبد الحميد ويهجوه هو وأصحابه الذين شنقهم الجيش ، ويقول لهم إن المطامع الشخصية هى التى ساقت هؤلاء إلى حتوفهم ، وكم سقطت من أجل تلك المطامع رؤوس :

حسبت زمان السوء يخلد عمره فيمرح عات أو يتيـه منـافق
وفاتك أن الدهر يعطى وينثنى فيسلب والمغـرور بالدهـر واثق
ألا قاتل الله المطـامع كم هـوى بها من عل شيخ وضل مراهق[٢٥]

(٢٢) ديوان الرصافى ٣٧٧ – ٣٨٠ .
(٢٣) زنابق الحقل ص ١٣٧ .
(٢٤) الأدب العصرى جـ ٢ ص ١٦٦ .
(٢٥) ديوان الكاظمى ص ١٢٨ – ١٢٩ جـ ٢ .

ليست العبرة بوضع الأنظمة والخطط والدساتير ، إنما العبرة فى التطبيق وفى مدى استجابة الشعوب للنظم الجديدة . . ولكن المحتاج تطربه رؤية المال ، ويزيد من طربه أن يقال له إن هذا المال معد لك . . فيبنى الآمال العراض حتى يعتقد أن الأمر أصبح حقيقة . . وهذا ما حدث فى الدستور العثمانى ، فقد كان الناس بحاجة إلى الحرية والمساواة والعدالة ، وبحاجة إلى ما يشبع نفوسهم وأجسامهم فعندما أعلن الدستور انبعثت هذه العواطف تهتف من أعماقها . . تحيى هذا المولود الحبيب الذى سيحقق لها ما تريده . . وقد شملت الفرحة كل فرد فى أجزاء الإمبراطورية العثمانية . . فكيف لا يشمل النواب الذين سيكونون حراساً لهذا الدستور . . إن الفرح الواسع والأمل العريض المجنح رسم للناس صوراً خيالية اعتقدوا بأنها هى الواقعية . لأن أيام الطغيان والاستبداد والسخرة وطولها أفقد الناس التمييز الذهنى أو التوازن العقلى ، وكانت نقلة الدستور وما أثير حوله من دعاية كافية لترسم للشعوب الخيال واقعاً ذهبيًّا عذباً يفيض بالسعادة ويرفل بالهناءة وكأنهم يعيشون فى جنات عدن التى وعد بها المتقون .

وها هم أولاء نواب العراق يرون الإصلاح وشيكاً ، وها هم أولاء يتصورون العراق قطراً مزدهراً بالخصب والرخاء والزراعة فى ظل العهد الجديد ، عهد الحرية والمساواة والعدالة .

يخطب على علاء الدين فى حفل تكريمى لتوديعه قبل سفره إلى الآستانة فيقول : « . . إننا والثقة بعونه تعالى وتوفيقه فى عزم أكيد على محافظة حقوق القطر العراقى خاصة . . والممالك العثمانية عامة وبذل الجهد فيما يعود على صلاح هذا الوطن العزيز الذى استحكمت فيه الرابطة بين أصناف جميع الرعية كائناً من كان ، فإنهم على اختلاف مذاهبهم ، وأديانهم ، وتشعب فرقهم ، وآرائهم يرمون إلى غاية واحدة ، هى سلامة الوطن باستخلاصه من حضيض التلف إلى أوج السعادة والشرف » ، ولا يكتفى النائب بما ذهب إليه من تفاؤل يرفع به العراق من الحضيض إلى الأوج وإنما يشرح الأعمال التى يقوم بها فيقول : (علينا التوصل بكل وسيلة إلى ما يعود لسعادة الخطة العراقية التى لها من عظيم الأهمية فوق ما يعلمه أهلها . ونجهد كل الجهد فى حصول الأسباب الكاملة بترقى زراعتها وتجارتها وأمنيتها وانتظام إدارتها من أعمارها وتسهيل طرقها ، والوسائط النقلية فى أنهارها وداخلها وخارجها)[٢٦] والرجل مخلص كل الإخلاص فى قوله وصادق النية ، وهذا دليل واضح على مدى تفاؤل الناس بالعهد الدستورى الجديد ، ولكن هل فكر بكل شىء قاله هذا النائب وهل له

(٢٦) أعلام العراق – القاهرة ١٣٤٥ هـ ص ٧٤ .

علم بمقدار الإصلاحات التى يجب أن تقوم بها الدولة والمبالغ التى يجب أن تتوفر لإنجازها ، والإمبراطورية تركة من فساد وانحطاط وإهمال فى جميع المرافق . . إن ساعات الخيال حلوة ولا تريد أن تهبط إلى الواقع . . ومتى اصطدمت به ردت قوية مثل اصطدامها . . ولم يكن على علاء الدين وحده فهذا معروف الرصافى تذهله الفرصة . . فيرى فى المجلس النيـابى الشمس التى تشرق لتبدد دياجير الظلمات الحالكة ، ويظن فى إعلان الدستور إيذاناً بزوال الظلم وسريان الحق فى مجراه الطبيعى لأن المجلس كالسماء التى تظلل الشعوب العثمانية كلها . . ولأنه نادى الحق والشورى والعدل . . ويظن ظهور الدستور فى الدولة العثمانية بادرة خير سوف تعم الشرق كله فقال :

يا شرق بشراك أبدى شمسك الفلك ... وزال عنك وعن آفاقك الحلك
أضحى به القوم أحراراً قد اعتصموا ... من النجاة بحبل ليس ينتبك
نـاد بـه القـول عن أهليه مستمع ... والحق متبع والأمر مشترك(٢٧)

هذه الفرحة ، وتلك السعادة ، والآمال العراض العذبة الجميلة التى عمت النفوس كان من الصعب أن تترك بسهولة . إن الخيال المجنح والآمال الواسعة التى رسمتها الأخيلة الجائعة صدمتها الحقيقة ، وكانت الصدمة قوية ، لذلك استحالت الفرحة إلى ألم دفين ومرارة لا تطاق . لأن الشعوب أرادت المستحيل من الدستور الجديد فتصوروا أن إعلان الدستور وحده سوف يحيل الأفكار إلى عسل ولبن فتغدو البلاد مزدهرة والنفوس متمدنة متعلمة ، وسوف تنتشر المصانع والمعامل فى طول البلاد وعرضها وأن جميع الأوضاع الفاسدة ستصلح ، وفاتهم أهم مقوم وأساس كل إصلاح ، فاتهم ما تحتاج إليه هذه الإصلاحات من أموال ومن أيد فنية وخبرة طويلة . . بل فاتهم ما كان عليه القائمون على الانقلاب من أخلاق . . وأنهم لن ينقلبوا ملائكة فى ساعات معينة وأنهم بشر لهم مطامعهم الخاصة ورغباتهم الفردية ، وقد عاشوا فى عهد كله فساد وانحطاط ، ولابد من أن يؤثر الفساد فى نفوسهم وعقولهم وتصرفاتهم – إلا من عصم ربى – وهذا ما حدث فى الدولة العثمانية عندما قامت جمعية الاتحاد والترقى بعملها وعزلت عبد الحميد . . فوجدت الخزينة قد أشرفت على الإفلاس . . وأجدبت الأراضى نتيجة لإهمال الرى المتوالى . وانتشرت الأمراض لعدم وجود أطباء وعشعش الجهل لعدم الالتفات إلى العلم واختل النظام لحرمان الدولة من أيدٍ حازمة نظيفة أمينة

(٢٧) ديوان الرصافى ص ٣٨٢ .

وتفشت الفوضى . .[٢٨] كل هذا مع عوامل كثيرة سيطرت على الدولة العثمانية والشعوب العثمانية جعل من المستحيل أن تتم الإصلاحات فى فترة قصيرة والدستور وحده لا فائدة منه إذا لم تعد له أسباب التقدم وما لم يكن الشعب نفسه مستعداً للسير فى الحياة الدستورية وممارستها ، ولقد كان الصدى عميقاً فى نفس الرصافى الشاعر النائب الذى ردد أناشيد الغبطة والسرور بالأمس فقال اليوم :

شكاية قلب بالأسى نابض العرق إلى قائم الدستور والعدل والحق

أى شكاية أشد إيلاما من قلب ينبض بالأسى والأحزان وما أشد وقع الألم على غير استعداد له ، وما أصعب الانتقال من السرور إلى الحزن ، لذلك فهو لا يرى لغير الدستور والعدل والحق أى سلطان ، وبذلك يطلب المستحيل فى هذا العصر الذى ضاع فيه الدستور وأهين العدل وهدرت كرامة الحق ، فيجأر شاكياً من كبد محترق قائلا فى تعجب غير مصدق بما يراه :

فهل أيها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصوارم طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الأفق
فصادفت منا أمة قد تعشقت لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
ولم تبد عنفاً حين جئت وإنما هتفنا جميعاً بالوفاق وبالرفق
وظلنا نرجى منك للخرق راقعاً ولكن تراخى الأمر متسع الخرق
بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد لديهم فيا لله للمسعد المشقى

وبعد هذه الاستغاثة الواضحة بما حصل له فى قوله (يا لله للمسعد) يظهر ما حاق بالشعب من جراء تحكم الاتحاديين فى تأليف الوزارات حسب ما تشتهى مطامعهم وأغراضهم فيقول : هم الذين استأثروا بالخيرات ولم يتركوا للأمة شيئاً عندما جعلوا الدستور الذى أرادته الأمة بكل قواها أداة للرزق والإثراء وغدا آلة لمصالحهم على حساب الشعب :

---

(٢٨) هناك كثير من الكتب التى تبحث فى العصر العثمانى التركى منها .

١ – The Oanpns, Last Heritage

وقد ألفه سر مارك سايكس النائب فى مجلس النواب البريطانى صاحب المعاهدة المشهورة عن سياحة قام بها باحثاً فيه حياة الإسلام منذ تكوينه حتى العهد الذى ساح فيه . ومركز الخلافة العثمانية. طبع فى لندن سنة ١٩١٥ .

٢ – تركيا وقد ألفه Kirk Wood. Toynbee طبع فى لندن سنة ١٩٢٦ .

قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به وسدوا على من حولهم طرق الرزق
كأنا لهم شاء فهم يحلبوننـــا وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق
وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ولم يتركوا للساكنين سوى المذق (٢٩)

ويقف « على الشرق » وقفة الحائر فى أمر العراق . إذ أنه رأى إعلان الدستور لم يغير شيئاً من حالة العراق العامة وكأن هذا الحدث الذى كان مقدراً له أن يدر على العراق الخير الوفير لم ينله بشىء ، والعراق متاخر . وقد عبر عن حيرته بشعر غير واضح الهدف ولجأ إلى اللف والدوران ولم يقدر إلا أن يقول :

نطقت بحاجتها الشعوب وأفصحت وأرى عراقى واجماً لا ينطق
وكأن هذا الشرق سفر غـرائب أضنى عليه الدارجون وعلقـوا
ختمت صحائفه وجئنا بعدهـا حتى كأنا فيه فصل ملحق
ماذا تغير والبـــلاد بأهلهـــا بغداد بغداد وجلق جلق(٣٠)

أما « البناء » فقد كان أوضح قصداً وأفصح مراداً من على الشرق ، فقد طالب بالإصلاح ولام نواب العراق الذين ذهبوا ليمثلوه فى مجلس الأمة دون هوادة فقال معنفاً :

فقولوا لنواب العـراق أما لـكم تشاغلتموا عنـا بأعلى المـــراتب
يشق علينـــا جبنكم وخمـولكم ولو كنتم نسل الكرام الأطايب

ويحث النواب على الدفاع عن حقوق الشعب والمطالبة بالإصلاح فيقول :

فلسنا انتخبناكم لإصلاح حالكم فنحن انتخبناكم لدفع النوائب
فلا تجعلوا للصمت فيكم سجية فرب كلام فاق سيف المحارب

---

(٢٩) ديوان الرصافى ص ٣٨٩ و ٣٩٠ وله قصيدة لم تنتشر فى الديوان وقد نشرت فى جريدة الرقيب العدد ١٥٦ – ١ سنة ١٣٢٧ مطلعها :

« ارى بغداد تسبح بالملاهى » وقد اخبرنى سيادة الاستاذ مصطفى على ان الرصافى لم يلحقها فى ديوانه عندما كان حيا . وللزهاوى قصيدة مطلعها .

لا تنتظر لعصابة رشـدا فيها تساوى الرأس والذنب

هاجم فيها جمعية الاتحاد والترقى مهاجمة عنيفة ويبدو لى انها نظمت بعد الحرب العالمية الاولى : راجع اللباب ص ٥٩ طبع بغداد ١٩٢٨

(٣٠) ديوان الشرق ص ١٩٩ .

ويضع حالة الأمة المتأخرة بين أيديهم وما حاق بها من انحطاط حتى لا يبقى لهم عذراً بقوله :

فما عذركم فى أمة قد تقهقرت ولم يبق فيها غير حسرة خائب[٣١]

ومما زاد فى هذا التشاؤم العنصرية التى انتهجها رجال الاتحاد والترقى ، وكان الألم ممضًّا إذ وجدت الشعوب فراغاً فى حياتها ، وكان هذا الفراغ واضحاً ، فقد كان يربطهم بالدولة الدافع الإسلامى ولم يكن هناك ما يركنون إليه بعد ذهاب هذا الرابط ، وفقدان شىء تعود عليه المرء يضاعف فى نفسه الألم والحزن . . إذ اضمحلت الروح العثمانية التى كانت تتميز بالإسلامية ورعايتها للإسلام ، وأخذ تيار التتريك الجديد يهدد العرب فى لغتهم وقوميتهم وحياتهم .

لذلك اندفع العرب نحو وجهة جديدة ليسدوا هذا الفراغ . وليحافظوا على كيانهم العربى ولغتهم . فظهرت بوادر القومية ونمت ، وأخذ العرب ينظرون إلى أنفسهم عنصراً واحداً له ما للأتراك من حق فى الحياة وله قوميته ، كما أن للأتراك قوميتهم ، بل إن للعرب تاريخـاً مجيداً حافلا بالفخر لا يدانيه تاريخ الأتراك ، ولهذا طالبوا بالانفصال عن الأتراك وتأسيس دولة توحدهم وتجمع شتاتهم وتدافع عن مصالحهم المشتركة[٣٢] .

---

(٣١) عواطف وعواصف ص ١٩٨ بغداد ١٩٥٣ .

(٣٢) صدى بابل ٢/٧٥ سنة ١٩١١ . ويراجع ديوان الزهاوى ص ٨٠ وله قصيدة فى(الاتجاهات الأدبية) يهاجم فيها قادة الاتحاد والترقى ص ٦٦.

٤

حروب الدولة وأثرها فى الشعر

كان لحروب الدولة العثمانية أثر كبير فى إثارة حماسة الشعراء ، فقد أيدها الشعراء تأييداً مطلقاً بدفعهم الشعور الدينى لأنهم كانوا يرون فى حروب الدولة العثمانية دفاعاً عن الكيان العثمانى الذى هم جزء منه ، ضد أطماع أوربا (الكافرة) التى تريد القضاء على الدولة (المسلمة) وبذلك قضاء على العرب والشرق [١] ، فلا نعجب أن نرى إجماع الشعراء على الذود عن الدولة العثمانية ضد أى عدوان عليها ، وقد كان من جراء هذا الشعور أن تطورت أساليب الشعر وتقدمت عما كانت عليه فى أوائل القرن التاسع عشر والثامن عشر ، فقد أحس الشاعر أنه جزء من هذا الكيان العام ، وأن مصالحه الفردية غدت مهددة ، ورأى أنه مسئول عن كل شىء فى هذه الدولة . فقد هزته الحروب العامة كما هزته من قبل الحياة الدستورية ، ورأى شيئاً جديداً يسمى المساواة مع الأمم الأخرى . فلم يعد يتمنى أن يقبل أذيال الوالى ويتوسل أن يقبل يديه [٢] كما تمنى التميمى ، كما أنه لم يسف فى شعره ويهدر كرامته ليكون أداة تسلية وإضحاك للوالى [٣] ، فقد ظهرت على شعره سمة من الاعتزاز بالنفس وبالكرامة الإنسانية ، ورأينا الشعر يرتفع فى موضوعه وأهدافه عن أهداف من سبقه ، يبتعد رويداً رويداً عن المبالغات ، وانسابت فى الشعر روح فى طياتها عاطفة الشعر وإحساس الشاعر ، ولم يكترث كثيراً برصف الألفاظ ، وانتقاء العبارات وبذل جهد كبير فى المحسنات اللفظية . وأخذ الشاعر ينافح صادقاً عن أمته ووطنه .

وقد نسى الشعراء جميع مساوئ الدولة العثمانية وتناسوا آلام الماضى الذى هيمن على العراق حتى يؤازروا الدولة صفًّا واحداً ملتفين حول راية واحدة هى راية المسلمين خوفاً من

---

(١) بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلاً للمسألة الإسلامية التى دوختهم القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر بباريس (الاتجاهات الوطنية ص ٢ من تاريخ الأستاذ الإمام ص ٨٠١ لمحمد رشيد رضا القاهرة ١٩٣١) .

(٢) ديوان التميمى ص ١٠٢ و ٤٠ .

(٣) الترياق الفاروق فى ص ٢٨٣ .

تفريق الشمل وبعثرة القوى يدفعهم الدافع الدينى العميق والدافع الذاتى الحساس ، وقد كانت كل الحروب التى يشنها الغرب ذات أثر واضح فى عواطف المسلمين والعرب ، ومن هذه الحروب التى ظهر أثرها فى الشعر العراقى فى هذه الفترة ، حرب اليونان سنة ١٨٩٧ وحرب طرابلس سنة ١٩١١ وحرب البلقان سنة ١٩١٢ والحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ (٤) .

حرب طرابلس :

وهى أول حرب تصادفنا فى القرن العشرين (٥) أثرت فى اتجاهات الشعر العربى عامة وفى العراق بصورة خاصة ، فقد شنت إيطاليا الحرب على طرابلس الغرب تريد امتلاكها واستعمارها ، ومتى كانت الشعوب ترضى بالاستعمار بدلا عن الحرية ، والذل بدلا عن الاستقلال ، لذلك أخذ أبناء البلاد بقيادة السنوسيين يدافعون عن أوطانهم بكل ما يملكون من قوة مضحين بالغالى والرخيص للمحافظة على الاستقلال بعد أن باءت الدولة بالفشل فى المحافظة على بلدهم ، وقد كان يدفع الشاعر العراقى دوافع كثيرة لمؤازرة طرابلس منها حق الحياة والحرية وما له من صلات وثقى بينه وبين أبناء طرابلس من دين وعروبة وبغض الاستعمار فثارت كل هذه العوامل فى نفوس الشعراء ودفعتهم نحو الانتصار لهذا القطر العربى المناضل فى سبيل حريته وكرامته وحياته ، فثار على أوربا المستعمرة وتطوع الكثيرون من جميع الأقطار وخاصة أبناء مصر (٦) . لكى يدافعوا عن طرابلس الغرب ، ولكى يقفوا

---

(٤) يراجع بشأن هذه الفترة Turkey لمؤلفه Toynbee ص ٥٤ و٥٨ و٩٢ – ١٠٠ . طبع لندن ١٩٢٦ والاتجاهات الوطنية ص ٣٩ عن مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ب ٢٨٨ وما بعدها ومذكرات العسكرى عن الثورة العربية ١٨ – ٢٦

(٥) هاجمت إيطاليا طرابلس عندما سحبت الدولة العثمانية جل قواتها لمحاربة إمام اليمن والإدريسى فى عسير ، فدخلت إيطاليا طرابلس ، وقد حاولت الدولة العثمانية إعادة ما استولى عليه الطليان ، لذلك أعدت حملة اشترك فيها عزيز المصرى القائد المعروف ومصطفى كمال باشا الذى أصبح زعيم تركيا الجديدة ، ولكن لعدم وجود وسائل نقل ولعدم تنظيم مسيرة هذه الحملة طال أمد الحرب ، وعند إعلان دول البلقان ، مثل الصرب وبلغاريا والجبل الأسود ، الحرب على الدولة العثمانية فى تشرين الأول ١٩١٢ اضطرت الأخيرة إلى طلب الهدنة من إيطاليا ، إذ أن الخطر غدا يهددها فى عقر دارها ، وقد تم بعد الهدنة التنازل عن طرابلس ، لكن العرب لم يرضوا بالاستسلام ، فقد قاومت القوات الوطنية ثمانية عشر عاماً حتى نفدت جميع الذخائر والعتاد ، ولعل من الطريف أن نذكر أن من المتطوعين كان ضابط نمساوى وآخر بريطانى .

(٦) قال تحسين العسكرى وقد كان من ضباط الجيش العثمانى الذين أرسلتهم الدولة لمحاربة الطليان : إن جمعية الهلال الأحمر أرشدتهم على الطريق المؤدى إلى طرابلس ، ثم زود بأربعة آلاف ليرة إنكليزية ذهبية إعانة من الشعب المصرى =

أمام المحتلين المعتدين وللدفاع عن الدين الإسلامى ، وقد ألفت كثير من اللجان لجمع التبرعات [٧] وإثارة الناس بإقامة الحفلات ، ومن تلك الحفلات حفلة النادى العربى فى الآستانة [٨] التى ألقى فيها محمد حبيب العبيدى خطبة حث الناس فيها على مساعدة الإسلام فى طرابلس ، ثم أعقبها بقصيدة تطفح بالحماسة الدينية والوطنية ورأى أن الشرق مسئول كله عن الذود عن حياض طرابلس ، لأن الغرب هو الذى يهاجم الشرق فى مهاجمته لطرابلس ولا يقل الشرق قدرة وكفاية عن الغرب ، غير أن أبناء الشرق كسالى خاملون ركنوا إلى الدعة والهدوء فلذلك اتخذ طريق شحذ هذه الهمم الخامدة والنفوس النائمة سبيلا له فقال :

كيف ترضى ياشرق أن يكسب الغر ب فخاراً من دونك العلياء
كيف ترضى ياشرق أن يمشى الغر ب أمامنا وأنت تمشى وراء

ويبرهن على ما للشرق من مكانة وقدرة بضرب الأمثلة من التاريخ القديم الذى نشر النور فيه الشرق وكان مهداً للمدنية والعلم وأن ربوعه كانت منبع العرفان والرقى والمفاخر فيقول :

من حمانا نور العلوم بدا فيها وعمت أقطارها الأضواء
نحن أحييا ما أمات زمان الجهل مما قد أسس القدماء

ثم يجول الشاعر جولة طويلة فى التاريخ الإسلامى والعربى مذكراً الشعوب الإسلامية والعربية بما كانت عليه من عزة وكرامة وسؤدد ويخرج بعدها من تلك الجولة إلى حرب الطليان واستعمارهم لقطر عربى مسلم ، ويقف متسائلا كيف يرضى هؤلاء الأحرار أن يكونوا أذلة ، وكيف يرضون للاستعمار الحكم والسيطرة وهم الذين ما عرفوا الاستعمار الذى هو مرادف للموت فيقول :

أنسام الهوان دون المنايا إنما الموت والهوان سواء
ليس دار الهوان للحر داراً إنما الحر داره الجوزاء

= لمجاهدى طرابلس الغرب . . وقال إن الحرب ضمت كثيراً من أبناء الأقطار العربية من سوريين وعراقيين . . (مذكراتى عن الثورة العربية ص ١٦ ، ١٤) .

(٧) الاتجاهات الوطنية ص ٣٥ لاحظ مصدره .

(٨) الأدب العصرى ص ١٤٨ (مصر ٩٢٤) وقد جاوزت القصيدة الـ ٥٠٠ بيت .

يا بنى الضاد إن للضاد حقًّا ناطحت دون هضمه الآباء
ليت شعرى ما ينقم القوم منا أم على أبصارهم هناك غشاء
ليت شعرى ما ينقم العمى منا رب قوم أرض ونحن سماء[٩]

ولم يتخلف الكاظمى عن المشاركة فى تأييد أحرار طرابلس – فى وطنه الثانى مصر – فقد هزه الاعتداء على طرابلس فنشر قصيدة فى جريدة المؤيد يحث فيها الشعب على إنجاد طرابلس بالأموال والأرواح والمسارعة فى هذه النجدة إذ لم يعد الوقت كافياً للتأخير والتأجيل . وقد صور الكاظمى حال إخوانه العرب وهم صرعى على الثرى يتخبطون فى دمائهم وقد وقفت النسوة خائفات فى العراء وليس لهن من معين على هذه البلوى غير الدموع الغزيرة والزفرات الحرار والوحدة والحزن والهموم . . وقصيدة الكاظمى من روائع الأدب العربى ففيها طفحت العاطفة الكريمة المبدعة . . وحدث من الشعور الإنسانى النبيل ، يرفعها إلى مصاف الأدب العالمى . . .

وفى القصيدة وصف لطيف لجبن الطليان الذى اعتدوا على الآمنين والعزل ، فإنهم حين خافوا أن يحاربوا فى حومة الوغى رجال الحرب هاجموا هؤلاء العزل للانتقام من الأقوياء الذين دحروهم وأردوهم إلى درك الهوان . .

وفى هذه القصيدة يدافع الكاظمى عن الدين الإسلامى الذين يصفه الغربيون بأنه دين متأخر ، دين الوحشية والعبودية . . ويضرب لهم مثلا ويتساءل فيقول :

أبعد هذا التناهى فى تعصبهم يعزى التعصب للإسلام والتهم ؟

ويرد عليهم ردًّا مقنعا بأنهم دعاة حرب لا دعاة سلام وإلا لما هاجموا قطراً آمنا واحتلوا أراضيه بالحديد والنار والدماء فيقول :

أين السلام الذى شادوا جوانبه زعماً خلوباً فلا شادوا ولا زعموا
قالوا « السلام » فنمنا واثقين به أين السلام وأركان السلام دم
أبعد ما شنت الطليان غارتها وقام (مخدوعنا) بالسلم يعتصم
قالوا الحياد فقلنا ليس ذا عجبا عن نصرة الحق كم حادوا وكم وجموا

ويصف لنا أخلاق الأوربيين من نكث العهود ، وحنث اليمين والوعود ، واهتضام حقوق الشعوب الضعيفة فيقول :

---

(٩) الأدب العصرى ص ١٤٨ – ١٥٢.

إن عـــاهدوا نكثوا أو أقسموا حنثوا أو عاملوا عبثوا بالحق واهتضموا

ولم يهاجم « المحسن » الدين المسيحى كما هاجم الغربيون الإسلام ولم يعتد على قدسيته كما اعتدى الأوربيون على الإسلام إنما قال إن الدين المسيحى هو دين الحق الذى يدعو إلى السلام والمحبة ، وإنه يضم بين جوانحه الفضيلة والمعروف والبر والرحم . وإنما الطليان المستعمرون هم الذين ضربوا بتعاليم الدين المسيحى جانباً ولم يمتثلوا تعاليمه السمحة فاعتدوا على الشعوب الضعيفة الآمنة واقترفوا الآثام باسمه وهو برىء مما يدعون .

وتبدو إنسانية الشاعر العربى بالدعاء لهم أن يأخذ الله بيدهم نحو الخير والسداد لأنهم قوم جاهلون يفعلون ذلك جهلا وحمقاً فقال :

رحماك يا دين عيسى لا تؤاخذهم إذا جنوا باسمك الفياح أو ظلموا
أهلوك قد جهلوا الدين الذى اتبعوا فحملوك خطـــاياهم وما علموا
حاشاك أنت برىء من خلائقهم ورب ذى كـرم أتباعـه لؤموا
وأنت يا أكمل الأديان معـــذرة مما عزاه لك الباغون واتهموا
أنت الفضيلة والمعروف أجمعــه أنت التقى والهدى والبر والرحم[١٠]

والقصيدة جاوزت المائة بيت كلها على هذا النسق . ولم يكتف الكاظمى بهذه القصيدة إنما عرج على ذكر طرابلس عندما نظم قصيدة أخرى فى حروب البلقان .

وإذا تصفحنا ديوان الرصافى نجده قد نظم ثلاث[١١] قصائد حث فيها المسلمين على الحرب والدفاع عن طرابلس ، وقد نظر الرصافى إلى هذه الحرب نظرة أخرى لم يرها حرباً بين إيطاليا والدولة العثمانية للاستيلاء على طرابلس ، إنما هى حرب الاستعمار الغربى الذى يريد أن يسيطر على الشرق لكى يستغله ويعبث بمقدراته ، والاستعمار ضارى ويبيد كل ما يقف أمام مصالحه ، فيجب أن يحارب الاستعمار نفسه الممثل فى إيطاليا الطامعة ، لذلك كان اندفاع الرصافى رائعاً فى الذود عن طرابلس ومثلا حيًّا للحماس الدينى . ومع هذه الروح فقد ابتعد عن مدح رجال الدولة العثمانية فى شعره ، وكأنى به يلقى التبعة على هؤلاء الرجال الذين تخاذلوا عن نصرة طرابلس وتركوها ضحية الاستعمار ، لذلك فقد صب كل شعره على الإشادة بالسنوسى وشجعه بكل قواه لأنه كان وحده المصطلى بنيران الحرب

(١٠) ديوان الكاظمى جـ١ دمشق ٩٩ – ١٠٩ ويلاحظ ص ١١٠ بصدد قصيدة البلقان .
(١١) ديوان الرصافى ص ٤٧٠ و٤٧٤ و٤٨٤ .

وبلاياها . ويؤيد رأى الرصافى فى الاستعمار وضراوته ورغبته فى السيطرة على الشرق ما حل فى مصر وتونس وكيف استباح الغربيون حمى هذه الأقطار المسلمة . . . لذلك فهو يخاطب أهل بنغازى والسنوسى مشيداً بشجاعتهم آملا أن يسير المسلمون جميعاً إلى نصرة طرابلس . . ولكنه يعرف سلفاً أن آماله بعيدة عن أن يحققها مسلمون ضعفاء متناحرون متأخرون . . فيشكو إلى الله ويقول مخاطباً السنوسى :

ومن مبلغ عنا السنوسى أنه ... يمد لهذا الصدع منه يد الرأب
فإنا لنرجو أن يقود إلى الوغى ... طلائع من خيل ومن إبل نجب
فيحمى بلاد المسلمين من العدا ... وينهض كشافاً لهم غمة الخطب
فإن حشا الإسلام أصبح دامياً ... إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ السنوسى مدركاً ... جنود بنى عثمان فى الجبل الغربى

ومع ذلك فإن قلب الرصافى مملوء بالأمل والفوز وأنه يأمل أن يؤازر المسلمون طرابلس فى حربها ، وأن يفتكوا بالجموع المعتدية ويبيدوا جيوش الاستعمار وليس من السهل على الغرب استعمار المسلمين وسوف يرد الاستعمار حاسراً حسيراً لأن المستعمر كاذب خداع يغتصب دون حق ويسيطر بالباطل على أرض المسلمين . . فيلتفت الرصافى ساخراً إلى هؤلاء فيقول لهم :

أيا زعماء الغرب هل من دلالة ... لديكم على غير الخديعة والكذب
تقولون إن العصر عصر تمدن ... أمن ذلكم قتل النفوس بلا ذنب ؟
ألم تبصروا القتلى تمج دماءها ... على الأرض والجرحى يئنون فى الحرب
أفى الحق أم فى العلم يسوؤكم ... ويخجلكم شن الإغارة للغصب(١٢)

ويؤكد سخريته فى قصيدة أخرى من التمدن الذى يدعيه الغرب وتكذبه وقائعهم وأعمالهم العدوانية وما ينشرونه على الشعوب الآمنة من الويلات والمصائب ، معدداً مصائب الشرق التى جاءته من الفرنسيين فى تونس ومراكش وما جنته يد الطليان فى طرابلس وعبث الإنكليز بحقوق مصر واحتلالها فيقول :

يقولون إن العصر عصر تمدن ... فما باله أمسى عن الحق مزورا
إلى الله أشكو فى الورى جاهلية ... يعدون فيها من تمدنهم عصرا

(١٢) ديوان الرصافى ٤٧٠ – ٤٧٣ .

أتتنا بثوب العلم تمشى تبخـــتراً إلى الخير ، لكن قد تأبطت الشرا

ودليل الرصافى واضح فى قوله :

لقد ملك الإفرنج أرض مراكش وقد ملكوا من قبلها تونس الخضرا
ففاجأنا الطليان من بعد ملكهم لكى يسلبونا من طرابلس – الأمرا
وقالوا ألم تأت الفـــرنجة تونسا وهذى جيوش الإنكليز أتت مصر(١٣)

وقد كانت حرب طرابلس – شأن كل الحروب فى هذا العصر – سبباً عاطفيًّا هز المسلمين جميعاً ولم يتخلف عن مساعدتها شاعر ، فقد اشترك الجميع مخلصين فى الدفاع عن حقوق طرابلس الغرب العربية المسلمة ، وكانت هذه القصائد صدى عميق الأثر عكس وعى الرأى العام فى الشرق العربى المسلم . . إذ كانت هذه العواطف صادقة بعيدة عن التزلف والمداجاة والنفاق ، فهم ذادوا بشعرهم عن طرابلس وسواها آملين بالثواب الآجل لا راغبين فى الأجر العاجل من أمير أو سلطان ، فهم زاهدون فى عطف الوالى ورضاء الحاكم ، ويسمو الشاعر بعواطفه الكريمة يدفعه دافعان : الدافع الدينى العميق الذى يربطه بهؤلاء العرب الذين تطحنهم رحى الاستعمار بدون رحمة ، والدافع الإنسانى الذى يرى أخاه الإنسان يفقد حريته واستقلاله ، غير أن الدافع الدينى كان أمتن وأقوى من غيره من روابط الشعر بطرابلس . . لذلك فقد أكثر الشعراء من النظم فى هذا المضمار . غير أن بعض الشعراء لم يكونوا واضحى القصد صريحين صراحة الرصافى . . . فلم يكونوا بينى القصد والغاية فى شعرهم كالشبيبى (محمد رضا) فقد تحدث بصورة عامة عن الحروب وعن الغربيين دون أن يتطرق إلى الحادث نفسه ، فالقصيدة بحد ذاتها لا تنطبق على حادثة طرابلس ، إنما هى تنطبق على كل الحروب التى يشنها الغربيون ولولا ذكر (برقة) ووجود المقدمة الإيضاحية للقصيدة لما عرفنا أنها نظمت فى حرب طرابلس . . فهى قصيدة شاعر عربى أثارته حروب الأجنبى على بلده فسقط منهم صرعى فى سبيل الوطن فثار عندما رأى إخوانه العرب صرعى . . وهزته الروح العربية والنخوة القومية لتأييدهم . . والفخر بجهادهم وحروبهم فقال :

عرب على قسمات وجـه وليدهم متبين عنوان طيب المولد
لا يطرقون الماء شيب نمـــيره وغـدا مخاضة رائح أو مغتـدى

(١٣) ديوان الرصافى ٤٧٤ .

وإذا الذئاب وردن ماء حرمت أسد الثرى غشيان ذاك المورد
وإذا اعتدى الباغى على أوطانهم بطشوا به وأروه عقبى المعتدى
أو ما أتاك برقة نبأ التى رمت البلاد بمبرق وبمرعد(١٤)

وتطفح القصيدة بالتهديد والوعيد وتفيض بالألم . أما أسلوبه الجزل فإنه يعيدك إلى العصور العربية ، عصور العناية بالسبك الجيد الرصين ، وبالرغم من أن أسلوب القصيدة جزل قوى فقد بدأت صرخات الألم تئن فى أبياته . وقد تطرق الشبيبى إلى الموضوع الذى يتشدق به الغربيون بأنهم أصحاب حضارة ومدنية وأنهم أصحاب التجديد والإبداع فيرد عليهم متهكماً بقوله :

إنا دعونا العصر عصر تقهقر فليدع عصر تقدم وتجدد
فماذا يرجى من وراء حضارة عمى البصير بها وضل المهتدى
وجدت فأعدمت النفوس فصائلا خلقت لها فكأنها لم توجد(١٥)

وهذه الروح العربية أثارت شاعراً آخر هو على الشرقى ، وقصيدته تصلح أن تكون لأى موضوع عام فى الحرب التى تثار بين العرب وبين أى فريق آخر من أعدائهم ، فلو حذفنا بيتين اثنين منها ضاع علينا المطلوب من القصيدة ، هذا إلى أنه ليس فى القصيدة دعوة صريحة للقتال لمساعدة أهل طرابلس ، ولم يخص الشاعر الحادث الذى حاق بطرابلس إلا بخمسة أبيات ختم بها قصيدته ، شبه فيها روما بالكلبة ثم جعل الكلبة حيواناً ناطحاً له قرون ، فقال :

ما لروما فلا استوى عرش روما فتلت ذيلها وعجت نباحا
جبنت عن نضال كل قوى فأغارت على الزوايا اكتساحا
نطحت برقة وبرقة واحات من النخل ما عرفن النطاحا
أبنى العرب لابراح عن الحرب ولا عن الفخار براحا(١٦)

وكان الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء أوضح أسلوباً وأسطع قصداً من الشبيبى والشرقى ، فقد تجلت فى قصيدته روح العالم القائد الذى يشعر بالمسئولية الملقاة على كاهله

(١٤) الديوان ص ١٩.
(١٥) الديوان ص ٢٠ .
(١٦) ديوان الشرقى ١٨٤.

وتجلت روح إسلامية أصيلة عميقة تطالب بالكفاح والنضال والمساعدة السريعة للمسلمين ، وصور الحادث تصويراً يدفع كل مسلم إلى المشاركة العاجلة لما فيها من تأنيب واستفزاز ونداء لإغاثة الإسلام الذى صم المسلمون آذانهم عن سماعه فقال :

أيهـا المسلمون هبوا فليس الـ ـموت إلى حيـاتكم بهوان
قد دهاكم ويل فماذا التمادى وأتاكم سيل فماذا التوانى
جاءكم جارف من الغرب تيـا ر يهد البنا وأس البـانى
يستغيث الإسلام فيكم فيلتى عنه منكم تصامم الآذان
صارخاً فيكم فهل من سميع صرخات الإسـلام والقـرآن

ولا يكتفى كاشف الغطاء بهذا ، بل يحرج المسلمين إحراجا ليستثير همتهم وحميتهم ونخوتهم فى سبيل مساعدة إخوانهم حينما يمعن بقوله :

إن بيض الوجوه سود إذا لم تغـدوا حمرا من النجيع القانى
إن لبس الثياب خزى إذا لم تجعلوها لكم من الأكفـان
إنكم والنساء – ما لم تـذودوا عن حماها عـدوكم – سيان

ولا يختلف الشعراء فى أن هذه الحرب الغربية إنما هى لتهديم الدين وإبادة المسلمين فى الشرق وتقويض دعائمه فى كل مكان . لأنهم يرون الجامعة الإسلامية صخرة قوية تقف أمام مطامعهم وغاياتهم ، فما على الغرب إلا أن يحطم هذه العقبة ليتمكن من استعمار الشرق . . وقد بدا فى حرب طرابلس والحروب الأخرى التى شنها هذا المطمع الاستعمارى واضحاً :

أظهر الغرب ما أجن من الغـد ر وأبدى كوامن الإضغـان
وأحاطت بالمسلمين علوج ال بغى من كل جانب ومكـان
يتشكى (المـراكشى) اعتصـابا وكشكواه يشتكى (العثمانى)
وإذا ولولت (طرابلس) فى الغـر ب أتاها العويل من (إيران)

وقد بذل قصارى الجهد فى التأثير فى نفوس المسلمين وأراد أن يحفزهم للقتال فتفنن فى صوره ثم التجأ إلى الصور الإنسانية النبيلة ليهز هذه المشاعر ، صور الأيامى المشردات والأطفال اليتامى الباكين حسرة على آبائهم فقال :

كم نساء أضحت أيامى تعانى من يتامى فقيدها ما تعانى
تعقد الراحتين بالقلب مهما نثرت بالدموع عقد جمان
كم ثكول تشجى الحمائم بالنو ح فتبدى غرائب الألحان
ولكم أم واحد ذات رزء ما لها عن عويلها من ثانى

ويسخر سخرية لاذعة من مدعى السلام الذين يسلبون دماء الضعاف على الأرض باسم المحافظة على السلام وباسم المدنية والحضارة فيقول :

أفهذا وضع السلام على الأر ض وهذا تمدن الإنسان

ولابد من الإشارة هنا إلى ما حوت عليه القصيدة من سخط واضح المعالم على السلطان وعلى حاشية السلطان ، فقد قال صراحة إن الملوك يجب أن يحموا البلاد لا أن يحموا عروشهم وتيجانهم بقوله :

إن عز الملوك فى حفظها الأم لاك لا فى العروش والتيجان

وصور هؤلاء الحاشية الذين غرتهم نعومة العيش وركنوا إلى الدعة ناسين الشعب الذى يعيش فى الفقر والفاقة ، لأنهم غلف القلوب إلا عن ترفعهم وملذاتهم عمى العيون إلا عن مصالحهم الشخصية ، وإلا فأين الضمير الحى الذى يدفعهم إلى أن يدرءوا الضيم عن أوطانهم :

يصرع البغى أهله مستثيرا وعلى نفسه سيجنى الجانى
غير أن « الإسلام » ضلوا عن الحز م وناموا على غرور الأمانى
أنذرتهم وقائع الدهر فيهم ناطقات لهم بكل لسان
فتعاموا عن العظات وهاموا بزخارف نعمة وليان
استلانوا نعومة الغرب حتى راعهم منه نهشة الأفعوان
تركوا دينهم لدنيا سواهم رب ربح يكون من خسران
وإذا القلب كان أعمى عن الر شد فماذا تفيده العينان
وإذا ما اليدان لا تدفع الضيم فأولى بالقطع تلك اليدان
ليت من لا يكون ذا حر دين فى البرايا يكون ذا وجدان[١٧]

(١٧) الأدب العصرى جـ٢ ص ٨٨.

ولم تكن هذه الروح الدينية مختصة ببلدة عراقية دون بلدة ، فى بغداد وجدنا الرصافى والزهاوى ، ومن النجف كاشف الغطاء ، وها هو ذا شاعر آخر من الحلة هو السيد عبد المطلب الحلى ، وقد كان الحلى من الداعين إلى العروبة والقومية العربية والداعين إلى الانفصال عن الدولة (١٨) ولكن الروح الإسلامية العربية استأثرت بجانب كبير من قصيدة له نظمها فى مناسبة الاعتداء على طرابلس واحتلالها ، والقصيدة سفر من التاريخ مما لم نجده فى شعر غيره من الشعراء المعاصرين فقد تتبع نزول قوات إيطاليا فى الساحل وذكر بعض وقائع هذه القوات مع السكان المناضلين ووقف موقفاً نبيلا إذ رأى الصلح ذلة واستكانة وامتهاناً لكرامة الدولة العثمانية أولا وللشعب العربى ، لذلك خاطب فكتور عمانوئيل مباشرة وأخبره أن الشعب لن يرضى بهذا الصلح ولن يكون صلحاً ما دامت أقدامه تطأ الديار العربية . وقال صراحة بأن الصلح عار لحق بالإسلام والمسلمين ، ويجب أن يمحى ورجا السلطان العثمانى الذى عقد الصلح برفض هذا الصلح الذى جلب العار على الأوطان واستئناف القتال لتطهير أرض العرب من الاستعمار ، والقصيدة طويلة حوت ضروباً متفرعة من الأغراض العامة لكنها امتازت بشىء بارز سيطر عليها هو الروح العربية والافتخار بالعرب وبالقومية العربية فقال :

أجهلتم بأننـا – مـذ خلقنـا – عرب ليس ينزل الضيم فينـا
ولنـا نبعة من العـز يأبى عـودها أن يلين للغـامزينـا
قـد قفـونا آباءنـا بالمعـالى وإليهـا أبنـاؤها تقتفينـا
نحن قـوم إذا الـوغى ضرستنـا لم نبـدل بشدة البأس لينـا

ويزهو والفخر يملأ أعطافه بقوميته وعروبته فيمدح العرب ويعدد شمائلهم الكريمة وفضائلهم السامية وأخلاقهم النبيلة ومحاربتهم للأعداء الذين يريدون أن يذلوهم ويستعبدوهم ، والعرب لا يرضون الذل وهم أبطال كرماء مغاوير فيهم من الصفات الإنسانية الكريمة ما تجعل العربى يفخر بها وبهم . وبعد ذلك يؤلمه ما أنزل الطليان بهم فقد قتلوا الأطفال وذبحوا النسوة دون رحمة أو أن تردهم الإنسانية عندما أبادوا حتى الجنين فى بطن أمه . . ويعدهم باليوم الذى سيأخذون حقهم كاملا من هؤلاء المستعمرين بقوله :

---

(١٨) شعراء الحلة جـ٣ ص ١٩٦ والقصيدة ص ٢٣٠ ولم يتخلف البناء عن هذا المضمار فنظم فى (ديوان البناء بغداد ١٣٣١ هـ) فى أثر الحروب لاحظ الصفحات ٩٨ – ١١٥ و١٢١ و١٢٥ و١٢٩ و١٤١.

كم لنا بالواحات عندهم ثار عليها الضبا دماً قد بكينا
تركوها مجازراً قد بكتها أعين الكائنات دمعاً هتونا
كم نساء صبراً بها قتلوها وأبادوا طفلا لها وجنينا

ويتهدد الملك فكتور عمانوئيل على ما اقترفت يداه وجنت جنوده فى الأرض العربية بأن هذا الدين يجب أن يؤخذ بالجلاء عن أرض أفريقيا لأن أفريقيا لأهلها وليست للمستعمر فقال :

قل لعمانوئيل لاصلح حتى ترجعوا عن بلادنا خاسئينا
قل لعمانوئيل لاصلح حتى تذعنوا تحت أمرنا طائعينا
قل لعمانوئيل لاصلح حتى تقتضيكم بالمرهفات الديونا
قل لعمانوئيل لاصلح حتى من دماكم ظما القنا يرتوينا
قل لعمانوئيل لاصلح حتى تصبحوا عن أفريقيا مختلينا

هذا التأكيد الخطابى فى الشطر الأول يدل دلالة واضحة على عزم الشاعر عن رغبة صادقة على القتال لغسل العار الذى لحق بالمسلمين ولم يملك نفسه حتى ينادى بأعلى صوته :

يا رسولى للمسلمين تحمل صرخة تملأ الوجود رنينا
وتعمد بطحاء مكة واهتف ببنى فاطم ركينا ركينا

ويحز فى قلبه الرقيق ذى المشاعر المرهفة هجود العرب والمسلمين فيصرخ بهم :

فالحراك الحراك يا فئة الله إلى الحرب لا السكون السكونا

ولما كان الصلح عاراً وأن السلطان العثمانى قد قبله مضطرًّا مكرهاً فجاء وفى أثره الهوان لم يصدق هذا القول فأخذ يتساءل عن حقيقة هذا الأمر :

أبلغا عنى الخليفة قولا غثه فى المقال كان سمينا
أبجد بالصلح ترضى اقتسارا هل كذا شأن امرة المسلمينا
كيف ترضى بالصلح والصلح عار ذاك يأباه سيد المرسلينا

وكانت للشاعر جرأة لم نجدها إلا لدى قليل من شعراء هذا العصر ، ودافع هذه الجرأة الإخلاص والحب والتفانى فى سبيل الأمة والشعب ، وإلا لما كان الشاعر بقادر أن يقول

(هل كذا شأن إمرة المسلمينا) ، والشاعر موزع العاطفة الصادقة تارة بين العرب وطوراً بين المسلمين ، فقد رأى الذين تربطهم روابط الدين والقربى يستعمرون . ولابد من الإشارة هنا بأن « الحلى » من الشعراء الذين جددوا كثيراً فى أسلوب الشعر وأخرجه من قيود القرن التاسع عشر متخلصاً من جميع الاستعارات الجامدة والصيغ المتكلسة التى كان يستعملها شعراء القرن التاسع عشر فقد اعتنى بالمعانى أكثر من عنايته بالألفاظ فى قصيدته هذه (١٩).

حرب البلقان :

والحرب الثانية التى هزت مشاعر الشعراء الإسلامية كانت حرب البلقان فى عام ١٩١٢ عم الاضطراب البلقان وطالبت بلغاريا والصرب والجبل الأسود بالاستقلال الإدارى عن الدولة العثمانية ، وكان عزيزاً على الدولة وعلى أبناء الإمبراطورية أن تنسلخ منها بعض أجزائها ، ومعنى هذا ضعف فى كيان الإمبراطورية الإسلامية . وزاد الطين بلة أن تقف اليونان مطالبة بجزر الأرخبيل ، وبرغم التسويات السلمية التى أرادتها الدولة العثمانية فقد باءت بالفشل ، فالشعوب بدأت تحس بأن حريتها واستقلالها أثمن من أية تسوية فأعلنت الحرب وعقد مؤتمر لندن لتسوية هذه المشكلة خوفاً من جر البلاد إلى حرب عالمية فيضطر المؤتمر العثمانيين إلى التخلى عن أدرنة والأرخبيل وجزره ، لكن ما كادت الوزارة توافق على هذا القرار حتى ثار حزب الاتحاد والترقى عليها وأسقط الوزارة واستأنف القتال (٢٠) وقد كسبت الحكومة العثمانية بادئ الأمر نصراً على هذه الدول ، فعم الفرح والسرور جميع سكان البلاد الإسلامية لأنهم شاعرون بأن دول الغرب وراء هذه المطالب تريد أن توهن من قوى دولتهم بيد أن هذا النصر بدأ يتحول إلى خسارة ، فتتقهقر الجيوش العثمانية وتسقط أدرنة ثم أخذت جيوش البلقان تتقدم نحو الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وفى الطريق ترتكب جرائم انتقامية من المسلمين مما يزيد فى الأسى والحسرة عليهم(٢١)

وقد واكب الرصافى هذا الحادث منذ بدايته عندما أراد السلطان رشاد أن يهدئ الخواطر بزيارته إلى مقدونيا وبلاد الألبان راجياً أن تستقر الأمور العامة ، وحسب الرصافى أن

---

(١٩) يمكن ملاحظة قصيدة باقر الشبيبى فى شعراء الغرى جـ١ ص ٤٣٠ وقصيدة عبد العزيز الجواهرى فى الأدب العصرى جـ٢ ص ١٧١ و١٧٢.

(٢٠) مذكراتى فى نصف قرن ٢ – ب ٢٨٨ وما بعدها .

(٢١) الاتجاهات الوطنية ص ٣٩ و٤٠ . يلاحظ المصادر .

زيارة السلطان رشاد تكفى لكى ينسى الشعب مطالبه ، لذلك خاطب حكومات البلقان قائلا :

قل للحكومات فى البلقان هل علقت ... آمالكم من مواعيد بإنجاز
إن الذى تضمرون اليوم من طمع ... أمسى لا شعب يغزو مثله الغازى
لم تعرفوا مذ لمستم عرق نخوتنا ... إذ قد لمستم بكف ذات قفاز
إنا لنعرف لغزاً فى سياستكم ... وما السياسة إلى بيت ألغاز

ووصف زيارة السلطان بأنها زيارة عفو وإحسان ، لأن العفو أقرب للتقوى وإلى جلب القلوب المتنافرة . وقد كان الرصافى حريصاً كل الحرص على الوحدة العثمانية وقوتها مهما تباينت هذه الأقوام والأمم التى يحكمها ، فقال :

يا أيها الملك السامى بحكمته ... والمبدل الناس من ذل بإعزاز
قد عى فى وصف ما أوتيت من حكم ... كلا كلامى إطناب وإيجاز
غزوت غزو سلام دون غايته ... غزو الحروب فأنت الفاتح الغازى
ملكت بالعفو والإحسان أفئدة ... كانت إلى السيف فيها بعض إعواز
وأنت لو شئت إرهاباً لجئتهم ... بصارم لنواصى القوم جزاز
لكنما جئتهم بالعفو تأخذهم ... والعفو أفضل ما يجزى به الجازى
فاغمد سيوفك إن العفو منصلت ... واهنأ بشعب محب غير منحاز
بالترك بالروم بالألبان قاطبة ... بالأرمنيين بالبلغار باللاز
أما بنو العرب فالإخلاص يرفعهم ... إلى مقام على الأقوام ممتاز(٢٢)

وعندما يستعد الجانبان للحرب ينظم الرصافى قصيدة يهدد فيها الصرب والبلغار ويهجوهم هجاء مرًّا لأنه لا يراهم أهلا للقتال وأن جيش المسلمين سوف يبدد شملهم ويبعثر قواهم . وبعد ذلك يمتدح الجيش العثمانى وأنه جيش خلق للقتال والنضال وجبل على البطولة والفداء ، ويهجو الصرب والبلغار فيقول :

يا علوج الصرب والبل ... غار أولاد الزوانى
لم يكن إيعادكم بال ... حرب غير الهذيان

---

(٢٢) الديوان ص ٤٠٣ و٤٠٤

إنمـــا الحرب لديـنـــا من تمـــام الحيـــوان
فاتركـوا الإيعـــاد يا أبنـ ء حمـــران العجـــان
ودعـــوا الحرب فليس الـ حرب من شأن الجبـــان
وتنزيـــوا يا مخانيـــ ث بأزياء الغـــوانى[٢٣]

ثم يتوعدهم بالذلة والانكسار والخسران فى الحرب . وليست هذه القصيدة من عيون الشعر العربى ، فلم يأت الرصافى بشىء جديد فى هجائه يخلد هذا الهجاء سوى الكلمات القاسية اللاذعة التى لا تليق به . . ولكن الرصافى يسف دائماً فى هجائه وينزل إلى مستوى لا يتناسب وما عرف عن شعره من رصانة وقوة سبك وأسلوب ضخم . . ويبدو هذا واضحاً عندما تترد انكسارات الجيش التركى ويصاب الرصافى بهزة عنيفة من خيبة الأمل فينظم قصيدتين يندب فيهما ما ضاع من الدولة العثمانية من أجزاء ، فيعود إلى أسلوبه المحكم الرصين ويجمع شتات ذهنه ، وكأنى بالحزن يسبغ عليه وقاراً وهيبة ، فى القصيدة التى نظمها بعد هزيمة (لولابوغاز) وقد كان القائد ناظم باشا[٢٤] يصرف أمور الجيش أثر الهمّ العميق والحزن الدفين فقد خسر الجيش ، وخسارة الجيش كانت من خيانة القائد نفسه ، لذلك كان الألم يصرخ فى نفسه عندما أقسم :

تالله لم ينكسر فى الحرب عسكرنا من أجل قلته أو من جبانته
وكيف وهو تفوق الطيس كثرته وتستعير الرواسى من رزانتـه[٢٥]
لـكن قائده ما كان يمـأنـه ولا يبـالى بأمر من معـــانته[٢٦]
حتى لقد نفدت فى الحرب عينته بحيث لم يبق سهم من كنانتـه

كان الرصافى شديد التفاؤل والأمل فى انتصار الجيش ورد الأعداء إلى دورهم وأنه سوف يكسب فخراً ونصراً وطنيًّا ولكنه انكسر فجاءنا بتعليل جميل فقال :

فظـل يرسف فى النـــيران مرتبكاً مستفرغاً كل جهد من متانتـه
حتى غـــدا جله للنـــار مأكلة وما تزحـزح شبراً عن مكانتـه

---

(٢٣) الديوان ٤٨٧ .
(٢٤) قتله الاتحاديون فى الآستانة .
(٢٥) الطيس الشىء الكثير من رمل وتراب وأراد الشاعر التكثير .
(٢٦) يمأن مأن إذا تحمل مؤنتهم وقوتهم ، والمعانة – المعونة المساعدة .

ولا استكان لهول الحرب من فرق ... بل كان يفرق من هول استكانته
فخاض غمر المنايا صابراً وأبى ... على الفرار انغماراً فى مهانته
ليس الفرار لجند المسلمين ألا ... إن الفرار لكفر فى ديانته
وكيف يغلب جيش كان قائده ... يحفه بجيوش من خيانته
فالجيش تلتهم النيران أنفسه ... وقائد الجيش لاه فى مجانته
أقام فى القصف والأجناد طاوية ... معاقراً بهناء بنت حانته[٢٧]

وتبدو آثار اليأس والألم الجريح فى القصيدة الثانية ، فقد استولى البلغار على أدرنة فأبدى التوجع والاستغاثة إذ لم يجد غير السلوى والعزاء فى بعث الأمل فى نفسه ، ولكن هذا الأمل كان مظهراً لحسرة تفيض باللوعة وإلا لما ودعها وداعاً يائساً وودع الجامع الذى لن يرتفع لصوت المؤذن فيه نداء . . ولو كان له بعض الأمل فى عودة أدرنة لما رثاها للنبى وأصحاب النبى فقال :

أدرنة مهلا فإن الظبى ... سترعى لك العهد والموثقا
وداعا لمغناك زاهى الربا ... وداعا ولكن إلى الملتقى

* * *

عزاء لمسجدك الجامع ... أفارق محرابه المنبرا
وهل فى مصلاه من راكع ... يجيب المؤذن إن كبرا
فيالسقوطك من فاجع ... به فجع الدهر أم القرى
وقبر النبوة فى يثربا ... ومثوى ضجيعيه مثوى التقى
ومن فى البقيع ومن فى قبا ... ومن شهدوا الفتح والخندقا

ويحيل الألم الشاعر إلى حكيم يردد الحكمة فيبصر حال المسلمين المتأخر عن ركب الحضارة ، والعدو يوالى الضربات وهم لا يحركون ساكناً . إنه شاعر يريد لقومه ويريد لأبناء دينه ويريد للشرق كله أن يثور على الاستعباد وعلى الهوان ولكنه لا يجد من يلبى هذا النداء ومن يبلغه الأمانى ، فالقوم متخاذلون يفعل الغرب بهم ما يريد فهو يصب عليهم الكروب ويجر عليهم الآلام والحسرات كل ذلك لأنهم متفرقون يعبث بهم الجهل فيهيب بهم قائلا :

---

(٢٧) الديوان ٤٨٠.

لقـد آن يا قوم ترك الونى وترك الشقاق وترك الدد[٢٨]
إلى كم نكابد هذا العنـا ونخبط فى جهلنـا الأسـود
وبالعلم من قبـل نلنـا المنى وفـزنا من العيش بالأرغـد
ولكنما العلم قـد غـربا فـلا عيش إلا إذا شرقا
فهبـوا هبـوب الصبـا عسى أن يسـح ويغـدودقا[٢٩]

ومع ما حاق بالدولة من تأخر واضمحلال فإن الشعراء كانوا يأملون أن ترفع الدولة العثمانية من مستوى الشعب وتنظر إليه بما يستحق من عناية ورعاية خاصة والأوربيون يهددونهم فى أملاكهم بل يهددونهم فى العاصمة نفسها وكانوا يرون ما يصيب الدولة جزءاً مما يصيب الشرق أجمعه ولذلك كان الشعراء يثيرون النخوة الإسلامية والشرقية ويحاولون استنهاض الهمم الراكدة فى نفوس الضعاف لذلك وجدنا الروح الشرقية تسير مع الروح الإسلامية أو الروح القومية العربية فى كثير من قريض شعراء هذه الفترة .

وقد كانت الحروب المتتالية التى تشن على الدولة سبباً قوياً وباعثاً من بواعث استفزازهم إلى طلب النجدة لإنقاذ الدولة من التأخر والانحطاط الذى يهدد كيانها فقال الكاظمى معاتباً أولى الأمر فى الدولة العثمانية خلال حروب البلقان :

حماة العلى ! ضاق الزمان بحلمكم ألا غضبة تأتى بعـذر الحوالم ؟
سكتم فغـر الطـامعين سكوتكم ألا كلمة من ذى هزاهز كالم
وداويتم بالحلم داء غـرورهم ورب جـروح أفسدت بالمـراهم
تحوم على طيب الـورود قلوبكم وعند الظبى رى القلوب الحوائم[٣٠]

أراد الشاعر أن يثير الحمية فى نفوس العرب والنخوة الإسلامية فى قلوب المسلمين بذكر ما حاق بالنساء من انتهاك لحرماتهن ، ووصفهن يستصرخن ولا من مغيث لهن من سطو المعتدين على حرماتهن فيقول :

ومستصرخات بالحمى تستفزكم لصون الحمى من عاديات المظالم
مخافة أن يسطى عـلى حـرماتها وهتك الهوادى دون هتك المحارم

---

(٢٨) الدد — اللعب العبث.
(٢٩) الديوان ص ٤٧٩.
(٣٠) الديوان جـ١ ص ١١١.

إذا ما تشكت قلت فى الخدر نائح يشاركه فى الدوح نوح الحمائم

أراد الكاظمى أن يثير النخوة الإسلامية فى هذه النفوس النائمة ، نفوس أبناء دينه وقومه وهددهم بما سوف يكون مصيرهم من استعباد وما سيكون عليه مصير النسوة وهن بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم . والكاظمى طويل النفس ، جال جولة تناسب وما عرف عنه من الإكثـــار ، ذهب فيه إلى حـــال العالم العربى كله . . وقـد كان الشاعر مخلصاً كل الإخلاص فى روحه الإسلامية والخوف الشديد من الفريقين وما يحملون معهم . . وقد كان شديد الرغبة فى أن يرى الشرق كله زاهراً زاهى المعالم لاسيما وقد رأت الحكومات التى انفصلت عن جسم الدولة العثمانية قد ازدهرت وكونت حكومات لا تقل عمراناً ونهضة وتقدماً عن الأمم الأوربية التى تقدمتها فى الاستقلال . . فكيف لا تتقدم الدولة التى انفصت عنها هذه الدول . . وصور لنا شعر الكاظمى الرائع فى أسلوبه المخلص فى النداء ، هذا التأخر الذى هيمن على الشرق ، فما على الشرق إلا أن يهب من هذا الرقاد والسكون :

حماة العلى ! طـال السكوت فعاذر إذا انطلقت أسيافكم فى الجماجم
خصومكم ضلوا وطاشت سهامهم وما وسموا إلا بشر المياســـم

إلى أن يقول :

أرى دول البلقـان طالت أنوفها عـلى دولة آثارها فى المخاطم
بإيمـانها جاءت لثل عـروشها ودك مبـــانى عزها والمعـــالم

وكل قصيدة من قصائد الكاظمى تصلح لأن تكون سجلا حافلا بالقديم والحديث من مصر ، فهو يخاطب آل عثمان وكيف أصبحت رعاياهم ملوك بغى قلبوا لهم ظهر المجن ، ويمتدح أعمال آل عثمان وكيف شادوا المجد بالقتال وهدموا تيجان المتجبرين الغاشمين ، كل ذلك لأن أعمالهم كانت جهاداً فى سبيل الله والحق والمكارم ، ويخلص من ذلك إلى نداء عثمان الذى أصبح ملكه بيد المغيرين ويريده أن يتيقظ من رقاده ليرد الباغين والظالمين من دول البلقان . والكاظمى يعكس لنا ما كان عصره يفكر فيه ، فيجب ألا تهم الكاظمى بأنه كان لا يريد الحرية والاستقلال وإنما كان يخشى على قومه وعلى أمته من أن تستولى عليها جموع الكافرين .

ويعتبر خصوم الدولة العثمانية خصوم المسلمين جميعاً بقوله :

حماة حمى الإسلام إن خصومكم خصـوم جميع المسلمين الأكارم
فلم يعدهم صدق الأحاديث عنكم بإفك وشايات العـدى والنمائم

ويخاطب دول البلقان أن ترعوى عن غيها وغدرها لا أن تشنها حرباً صليبية ضد المسلمين فقال :

أفى أى حق غـدركم بجواركم وفى أى دين حربكم للمسالم ؟
جنـايته إحسـانه لجـواره وآثامـه رعى البغـاة الأواثم
فمـا أنتم إلا جنـاة تعـودوا ركوب الدنايا وارتكاب الجـرائم
تخيفوننا بالحرب ، والحرب عندنا لمن ألف العدوان أشهى المطـاعم

ويتهددهم قائلا :

صليبية تـدعـونهـا ، ونعـدها هـلالية والسيف أعـدل حاكم
وسوف ترى سود القلانس ما الذى ستلقـاه من كـرات بيض العمائم

ويخاطب أبناء الشرق الذين عليهم المعوّل فى الحروب ويحذرهم بقوله :

بنى الشرق هبوا إن فى الغرب هبة تعد عليكم كل بـار وحاطم
تسـير إلى أيمانكم بغـلائل وتمشى إلى أفواهكم بكمائم
أعـدت عليكم منكم كل غافل وعدت لها أوطانكم غنم غانم
فهل وثبـة ضـارية بعد وثبـة تقاوم دون المجد كل مقاوم !
أيا أمم البلقان فيئوا لرشـدكم ولا تترامـوا فى حضون الجواحم[٣١]

وقد اتخذ خيرى الهنداوى صورة جديدة فى تأنيب العثمانيين ، فقد تصور حادثة محبين كانا يعيشان فى سعادة وهناءة وقد خيم الحب عليهما وسقاهما من كؤوس اللقاء مترعة فى نشوة وجذل ، إذ هاجمت قوات البلغار المعتدية الدولة التركية فما كان من الشاب (نجيب) إلا أن يلبى داعى الجهاد للذود عن حمى دولته والدفاع عنها ، وفى سلانيك يلاقى مصيره المحتوم . . فتنكب عليه حبيبته (أسماء) هلعة جزعة فقد اختطف العدو حبيبها الغالى

(٣١) الديوان جـ٢ ص ١١٠ – ١٢١.

وأحاطوا بها من كل جانب وليس لها من معين غير حسرات حرار ودموع غزار والأسر الذى يوصلها ذليلة حسرى إلى أمير جيش الأعداء فتصرخ الفتاة مستغيثة تطلب النجدة والعون . . فيجيب الهنداوى الحسناء بقوله :

يا هـذه كفى الدعاء فقومنـا ... لو تعلمين عن الـدعاء نيـام
ما القوم إلا سحب صيف أرعدت ... ثم انجلت بالريح وهى جهام
لا تستغيثى ليس معتصم بنـا ... كـلا ولا فينا يعـد همام
ماتت عـواطفنا بمـوت رجالنـا ... فجميعنا بمماتهـا أيتـام[٣٢]

هذا هو العهد العثمانى وأثره فى الشعر العراقى حتى نشوب الحرب العظمى الأولى وقد رأينا ما كان عليه العراق من تأخر شامل لجميع نواحى حياته الاقتصادية والسياسية . وبرغم أن الدستور أحيا موات الآمال فى نفوس العراقيين إلا أنهم لم يروا ظلاً للإصلاح الذى انتظروه طويلا ، فقد تعذر الإصلاح وبقى الدستور حبراً على ورق ، وما فائدة الدستور وإن ضم خير المواد التى تعود على أبناء الشعب بالسعادة ، إذ لم تخرج هذه المواد إلى حيز العمل .

لم يكن فى طاقة الدولة القيام بالإصلاحات المنشودة لظروف أحاطت بالاتحاديين أنفسهم ولم تكن هناك أسس يتفق عليها الحكام ، لذلك ضاعت الدولة بأجمعها .

وقد كان الشعراء يؤازرون الدولة ويسيرون فى ركابها عندما كان الشعور الإسلامى هو المسيطر ، والخوف من الاستعمار الأجنبى يرعب المسلمين . ولكن هذا الشعور ضعف عندما نادى الاتحاديون بالطورانية .

وقد أرجأت البحث فى الحرب العالمية إلى فصل قائم بذاته لأنها اشتملت على معارك وأحداث متنوعة وقد كان لأثر الحرب العظمى نصيب كبير فى حياة العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولابد من الإشارة هنا بأن العثور على شعر هذه الفترة كان صعباً ولم يتسن لى العثور على أكثر ما قيل فيها لأسباب منها :

١ – زوال العهد الذى نظم فيه هذا الشعر ، وحلول عهد آخر مناقض له هو العهد الذى حكم فيه الإنكليز وكانوا أعداء للأتراك .

(٣٢) الأدب العصرى جـ١ ص ١٧١ – ١٧٣.

٢ – إن النظم فى بعض المناسبات أو فى بعض فترات من العمر تغير رأى الشاعر فى المناسبة وفى شعر الشباب ، لذلك أتلف عدد من الشعراء هذا الشعر لتقدمهم فى معارج الحياة الاجتماعية والفوز بالمكانة السياسية التى لا تتلاءم مع ما نظموه .

٣ – أهمل بعض الشعراء تدوين الشعر ، والإهمال طبيعة فى كثير من الشعراء . فضاع بنتيجة الإهمال الشيء الكثير . ومع كل ذلك فالشيء الباقى يعد قليلا وما نشر فى الجرائد يعطى فكرة واضحة عن هذا العصر وإن لم يعط فكرة عن أجواء بعض الشعراء أنفسهم . ونحن نؤرخ العصر ونعنى به أكثر من عنايتنا بالأفراد .